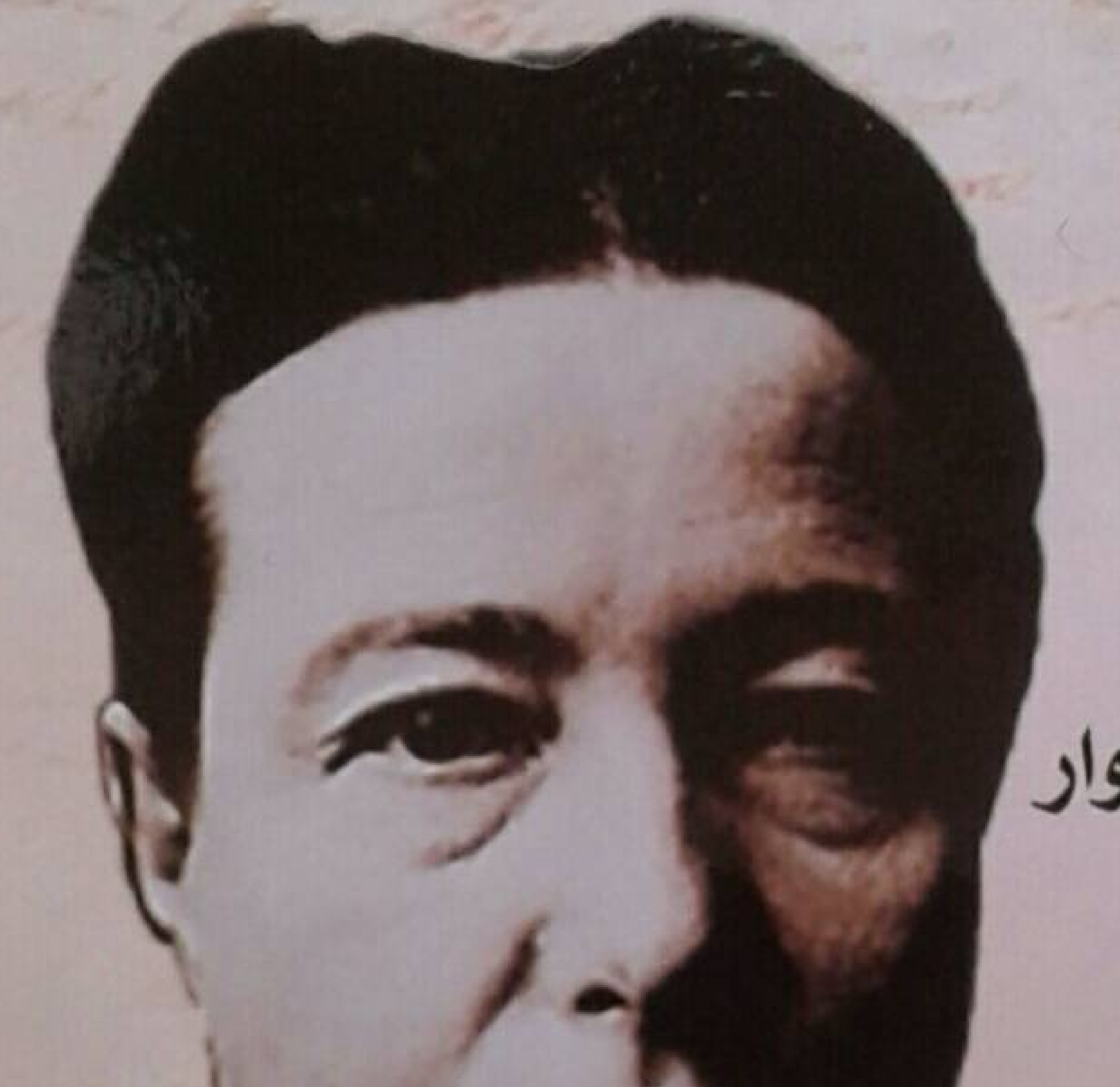
LES INSÉPARABLES

فتاتان لا تفترقان



سيمون دو بوفوار

ترجمة

د. مروان اسبر

Simone de Beauvoir

فتاتان لا تفترقان

LES INSÉPARABLES

سيمون دو بوفوار

Simone De Beauvoir

ترجمة: د. مروان اسبر



ISBN:979-10-319-0274-6

تانيت ليست دار نشر ربحية بل هي مشروع تعاوني من نخب ثقافية عربية وغربية مهمته نقل الثقافة الأخرى والتراث الفكري إلى العربية لهدف انساني توعوي يجسر الهوة بين مجتمعاتنا العربية ويساهم في معالجة بذور التطرف وتجفيف منابع الإرهاب.

لاتنشر الدار ألا ماهي مقتنعة به ونتبناه لذا نحن لا نتبنى شعار الهروب الذي يعتبر الأراء الواردة هي ليست أراء الدار بل هي أفكارنا 100٪

دمشق. بروكسل

شعارنا

الثقافة هي ملك لكل الشعوب وسننقلها للعربية للرتقي

فتاتان لا تفترقان

LES INSÉPARABLES

سيمون دو بوفوار
Simone De Beauvoir

ترجمة: د. مروان اسبر

المقدمة

لِـ سيلفي لو بون دو بوفوار

إلى جانب سيمون دو بوفوار البالغة من العمر تسع سنوات، وهي طالبة في الدورة الدينية الكاثوليكية في مدرسة أديلين ديزير، أخذتْ إليزابيث لاكوان مكانها، وهي معروفة باسم زازا، فتاة سمراء ذات شعر قصير، تكبرها ببضعة أيام.. بصفاتها الفطرية، المضحكة، الجريئة، تشكّل تناقضاً مع النزعة الامتثالية الدينية المحيطة.

في بداية العام الدراسي التالي، زازا لم تكن موجودة، الأجواء كئيبة ومرهقة، والعالم مظلم، عندما ظهرت فجأة تلك المتأخرة وظهرت معها الشمس والفرح والسعادة، ذكاؤها المفعم بالحيوية ومواهبها المتعددة أغرت

سيمون فأعجبت بها، وأصبحت مفتونة خاضعة، كانتا تتنافسان على المراكز الأولى، وأصبحتا كالعاشق والمعشوق.

لا يعني ذلك أنّ سيمون لا تعيش بسعادة في عائلتها، بين والدتها الشابة المحبوبة وأبيها المُعجَب وأختها الصغرى التي لا تخضع لأحد، لكن ما يحدث للفتاة البالغة من العمر عشر سنوات هو مغامرة القلب الأولى؛ شعورها تجاه زازا هو شعور بالتعلق بشغف، إنها توقرها، وترتجف من فكرة ألا تنال إعجابها، وهي لا تفهم، بالطبع، في فترة الطفولة الهشة الضعيفة والمثيرة للشفقة، ذلك الكشف المبكر الذي يصعقها، بالنسبة إلينا، نحن شهودها على أنها بليغة الأثر..

محادثاتها الطويلة وجهاً لوجه مع زازا تتخذ في نظرها شكل جائزة لا حدود لها.. أوه! حصرتهما تربيتهما في إطار متشدد، حين تكونان تهزران ولم تكونا ترفعان الكلفة فيما بينهما، لكن على الرغم من هذا التحفظ، فإنهما كانتا تتحدثان بطريقة لم تتحدث بها سيمون أبداً مع أحد.

ما هو الشعور المجهول الذي، تحت التسمية التقليدية للصداقة، يضرم قلبها الجديد تماماً، في عجب ونشوة، إن لم يكن شعوراً بالحب؟ وأدركتْ بسرعة أنّ زازا لا تشعر بتعلقٍ مماثل، ولا تشكّ في شدة تعلقها، لكن ما الذي يهم إلى جانب هذا الافتتان بالمحبة؟

توفيت زازا فجأة، قبل شهر من عيد ميلادها الثاني والعشرين، في ٢٥ نوفمبر ١٩٢٩، كارثة غير متوقعة، ستظل تلاحق سيمون دو بوفوار.

كانت صديقتها لفترة طويلة تعود إلى أحلامها، وجهها أصفر تحت غطاء ورديّ اللون، وهي تنظر إليها بعتب، من أجل إلغاء العدم والنسيان، كان هناك ملاذ واحد فقط: هو تعويذة رُقية الأدب، أربع مرات، في مواضع مختلفة، في روايات للأطفال غير منشورة، وفي مجموعتها ***عندما تسود الروحانية***، وفي مقطع محذوف من رواية ***المثقفون*** (Les Mandarins) التي أكسبتها جائزة كونكور (Goncourt) عام ١٩٥٤، أربع مرات بالفعل، حاولتْ الكاتبة عبثاً إعادة الحياة لزازا.. أعادتْ الكرة، في نفس العام مع قصة طويلة ظلّت غير منشورة حتى اليوم، تركتها من دون عنوان وها نحن ننشرها هنا.

هذا التحول الوهمي الأخير يتركها غير راضية لكنه يقودها من خلال منعطف أساسي إلى تحولٍ أدبيٍّ حاسم، في عام ١٩٥٨، أدرجت قصة حياة وموت زازا في كتابة سيرتها الذاتية: وكان ذلك في عملها ***مذكرات فتاة صغيرة مرتبة***.

لا يمكن أن نهمل مع اكتمال القصة واحتفاظ سيمون دو بوفوار بقيمتها الأعظمية على الرغم من الحكم النقدي الذي أطلقته عليها، في

مواجهة الغموض، يتعاظم التساؤل، وتتعدد وجهات النظر والمقاربات، والآفاق المستقبلية، والإضاءات.

ويبقى موت زازا لغزاً بشكلٍ جزئي، ولا تتطابق تماماً الأضواء التي ألقاها عليه العملان اللذان أنجزا عامي ١٩٥٤ و ١٩٥٨، في هذه القصة يتمّ عرض موضوع الصداقة الكبيرة لأوّل مرة، من بين تلك الصداقات الغامضة مثل الحب، التي جعلت مونتينيو يكتب عن إيتيان دو لا بويسيه وعن نفسه: ((لأنها كانت هي، لأنني كنت أنا))، إلى جانب أندريه، التجسد الرومانسي لزازا، تقف الزّاوية التي تقول "أنا" وهي صديقتها سيلفي.

تتّحد "الفتاتان اللتان لا تفترقان"، في القصة كما في الحياة، لمواجهة الأحداث، لكن سيلفي هي التي تنقل هذه الأحداث من منظور مشوه لصداقتها، مما يسمح من خلال لعبة التناقضات بالكشف عن غموضها الذي يتعسّر تبسيطه.

كان اختيار الرواية يتضمن العديد من التبديلات والتعديلات التي يجب فكّ شفرتها، الأسماء الصحيحة للشخصيات والأماكن والمواقف العائلية تختلف عن الواقع، حلت أندريه غالار محل إليزابيث لاكوان، وحلت سيلفي لوبّاج محل سيمون دو بوفوار، تتألف عائلة غالار (وهي شخصية مابيل في *مذكرات فتاة صغيرة مرتبة*) من سبعة أطفال، من بينهم

صبيٌّ واحد فقط؛ عند عائلة لاكوان، كانوا تسعة أشخاص ست فتيات وثلاثة أولاد، سيمون دو بوفوار لديها أخت واحدة فقط، بينما باسمها المستعار *سيلفي* عندها أختان.

ونتعرّف بشكلٍ واضح في جامعة أديلايد على المدرسة الخاصة الدينية الكاثوليكية الشهيرة *ديزير*، الواقعة في شارع جاكوب في حي سان جيرمان دي بري، حيث قامت معلماتهن بتسمية الفتاتين الصغيرتين بأنهما "لا تفترقان"، وهذا التعبير لأنه يربط بين الحقيقة والخيال، سيستخدم من الآن فصاعداً عنواناً لهذه القصة، تختفي خلف شخصية باسكال بلونديل شخصية موريس ميرلو بونتي/ Maurice Merleau-Ponty / (الذي يُدعى براديل في *مذكرات فتاة صغيرة*)، وهو يتيم الأب، شديد التعلق بوالدته التي كان يعيش معها، ومع أختٍ لا تشبه شخصية إيتا، وتحولت ملكية سيارة ليموزين من ميرينياك (Meyrignac) إلى ساديرناك (Sadernac)، بينما يشير بيتاري (Béthary) إلى غانيوبان (Gagnepan) حيث أقامت سيمون دو بوفوار مرتين، في أحد مسكني عائلة لاكوان في منطقة ليلاند مع اوبارادان، ودُفنت زازا هناك في سان بانديلون.

ما سبب موت زازا؟

سبب موتها هو التهاب الدماغ الفيروسي حسب التشخيص الموضوعي العلمي البارد، لكن ما هو هذا التسلسل المنطقي القاتل الذي يرجع إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير، والذي طوّق في شبكاته كلّ وجودها، وسلّمها أخيراً ضعيفةً، منهكةً، يائسةً إلى الجنون والموت؟ كانت سيمون دو بوفوار ستجيب: ماتت زازا لأنها كانت استثنائيةً؛ لقد تمّ قتلها، وكان موتها "جريمة روحانية".

ماتت زازا لأنها حاولت أن تكون هي نفسها، وتمّ إقناعها أنّ هذا الادعاء شرٌّ في بيئة برجوازية كاثوليكية مناضلة حيث وُلدت في ٢٥ ديسمبر ١٩٠٧، وفي عائلتها ذات التقاليد الصارمة، كان واجب الفتاة أن تنسى نفسها، وأن تتخلى عن نفسها، وأن تتكيف.

لم تستطع زازا التكيف لأنّها كانت استثنائية – وهذا مصطلح شرير يعني الدمج في قالب جاهز حيث ينتظرها نخروب من بين نخاريب أخرى، وما يفيض عنه سيتمّ ضغطه وسحقه ورميه كنفايات، لم تستطع زازا التكيف، لقد تمّ سحق تميُّزها.

هنا تكمن الجريمة والاغتيال، تتذكر سيمون دو بوفوار بنوعٍ من الرعب التقاط صورة عائلية في غانيبان، تمّ ترتيب كلّ من الأطفال التسعة

وفقاً لسنّ كلّ واحد منهم، وكانت الفتيات الست يرتدين زياً رسمياً من قماش التفتا الأزرق، والقبعة نفسها من القش مزينة بزهر أزرق اللون على رؤوسهن، كانت زازا بينهم في مكانها الذي كان ينتظرها منذ الأزل، مكان البنت الوسطى لأسرة لاكوان، بنوعٍ من التعصب، رفضت الشابة سيمون هذه الصورة، لا، زازا لم تكن بهذه الصفات كانت "فريدة من نوعها".

إنّ الظهور غير المتوقع للحرية هو ما كانت تنكره كلّ عقائد عائلتها الأساسية، كانت المجموعة الأسرية تستثمرها بلا هوادة، فهي فريسة "الواجبات الاجتماعية"، محاطة بأسرة من الإخوة والأخوات وأبناء العمومة والأصدقاء وعائلة كبيرة، تلتهمها المهام والمناسبات الاجتماعية والزيارات أو الترفيه الجماعي، لا تتمتع بلحظة خاصة بها، لا يتركونها وحدها أو وحدها مع صديقتها، إنها لا تنتمي لنفسها، ولا تُمنح وقتاً خاصّاً بها، لا من أجل العزف على كمانها ولا من أجل دراستها، وحتى امتياز العزلة رفضوه لها.

لهذا السبب يعدُّ الصيف في بيتاري بالنسبة لها بمثابة جحيم؛ إنها تختنق، وتتوق إلى الهروب من هذا الوجود المطلق للآخرين - يفكر المرء في تصرف الإذلال المماثل الذي تفرضه بعض المؤسسات الرهبانية - لدرجة أنها تذهب إلى حدّ حزّ قدمها بفأس للهروب من عمل مجانيّ بغيض من أجل

الكنسية، في هذه البيئة يرتبط الأمر بألا يبرز المرء، ولا أن يكون لنفسه لكن ليعيش من أجل الآخرين، ((أمي لا تفعل شيئاً لها أبداً، إنها تقضي حياتها في تكريس نفسها))، كما قالت ذات يوم.

في ظلّ هذا الإشباع المستمر لهذه التقاليد المنفردة، يتمّ سحق كلّ ميولٍ فردية حيّة في مهدها، ومع ذلك، لا توجد فضيحة أسوأ من ذلك بالنسبة لسيمون دو بوفوار، وهذا ما تريد القصة أن تبينه لنا، فضيحةٌ يمكن وصفها أنها فلسفية؛ لأنها تهدد الحالة الإنسانية.

سيبقى تأكيد القيمة المطلقة للذاتية في جوهر فكرها وعملها، وليس في التأكيد على الفرد، وهو رقمٌ بسيط في العيّنة الجماعية، لكن للفردانية الفريدة، الذي يجعل كلّ واحد منا ((لا يمكن الاستغناء عنه من بين كلّ الكائنات)) وفقاً لتعبير أندريه جيْد، ووجود هذا الوعي فوري: ((أحبوا ما لن تروه أبداً مرتين))، هذه قناعة أصيلة لا تتزعزع يدعمها التفكير الفلسفي: في هذا العالم الدنيوي ندرك أهمية المطلق على الأرض، خلال وجودنا الذي لن نحياه سوى مرة واحدة، لذلك نحن نفهم أنه في قصة زازا، كان الاعتبار في أعظم حالاته.

ما هي دوافع هذه المأساة؟ تتداخل العديد من المعطيات ضمن حزمة، بعضها واضح، منها: عشقها لوالدتها التي يمزقها عقوقها لها، كانت

زازا تحب والدتها بشغف، بحب غيور لدرجة المأساة، كان حماسها يصطدم ببرودة معينة من جانب أمها، وشعرت هذه الابنة الوسطى بنفسها تغرق في كتلة الأشقاء، في كتلة من بين كتل أخرى.

لم تكن مدام لاكوان تستخدم بمهارة سلطتها لقمع الاضطرابات التي يعاني منها أطفالها الصغار، ولم تستخدم هذه السلطة لتضمن تأثيرها عليهم بشكل أفضل عندما يتعلق الأمر بتنفيذ ما هو أساسي.

إنّ توجيه الفتاة يؤدي إلى الزواج أو إلى الدير، ولا تستطيع أن تقرر مصيرها حسب أذواقها ومشاعرها، والأمر متروك للعائلة لترتيب الزيجات، من خلال تنظيم "مقابلات ولقاءات"، واختيار المرشحين وفقاً لمصالحهم العقائدية والدينية والدنيوية والمالية، وكان الزواج يتمّ في البيئة نفسها.

المرة الأولى كانت في سن الخامسة عشر، عندما اصطدمت زازا بهذه العقائد القاتلة، تمّ قطع حبها لابن عمها برنار عبر فصل وحشي، والمرة المرة الثانية، كانت في سن العشرين، إذ تمّ التهديد بتحطيمها، اختيارها للغريب باسكال بلونديل، وأملها في الزواج منه، والكثير من الحماقات غير المقبولة في نظر العشيرة.

مأساة زازا تكمن في وجود حليف في أعماقها يدعم العدو بشكل ماكر وكتيم، ليست لديها القوة لتحدي سلطة مقدسة ومحبوبة والتي عقابها

يؤدي إلى قتلها هي، في نفس اللحظة التي يُضعِف فيها اللوم من جهة الأم ثقتها بنفسها وذوقها مدى الحياة، تقوم هي باستيعابه وتكاد تذهب إلى حدّ المصادقة مع حكم القاضي الذي يدينها.

إنّ القمع الذي مارسته السيدة لاكوان متناقض لدرجة أنه يمكن للمرء أن يخمّن صدعاً في كتلة نزعتها الامتثالية الدينية، تلك الشابة، التي يبدو أنها مرغمة من قبل والدتها على زواج كان يلهمها النفور، كان عليها أن "تتكيف" - وهنا تظهر كلمة الفظاعة - لقد أنكرت نفسها، وأصبحت امرأة إمبراطورية مهيبة، قررت إعادة إنتاج مسننات أدوات التحطيم.

أيّ إحباط وأيّ استياء كانا يختبئان وراء وجهها المطمئن؟

أثقل غطاء التقوى، أو بالأحرى غطاء الروحانية، بشكل كبير على حياة زازا، كانت تسبح في جو مشبع بالدين، كانت من سلالة كاثوليكية متشددة، والدها رئيس رابطة آباء العائلات الكبيرة، وأمها لها مكانة مرموقة في أبرشية سان توماس داكوان، أحد إخوتها كاهن وإحدى أخواتها راهبة. وكلّ عام تذهب العائلة للحج في منطقة لورد.

ما تستنكره سيمون دو بوفوار تحت اسم الروحانية هو هذا "البياض"، هذا الخداع الذي يقوم على إخفاء الهالة ما وراء الطبيعية للقيم الطبقية الأرضية بامتياز، بطبيعة الحال، فإنّ المخادعين هم أول المخدوعين؛

الإشارة التلقائية إلى الدين تبرّر كلّ شيء، قال السيد غالار بعد وفاة ابنته: ((لم نكن سوى أدوات في يدِ الله))، لقد تمّ إخضاع زازا لأنها استوعبت الكاثوليكية التي، بالنسبة إلى عامة الناس، ليست سوى ممارسة ملائمة ورسمية، وقد خدمتها مرة أخرى ميزاتها استثنائية بشكل جيد، على الرغم من أنها كشفت عن نفاق وأكاذيب وأنانية "النزعة الأخلاقية" في محيطها، التي تخون أفعالها باستمرار كما تخون الأفكار التافهة روح الأناجيل، إلا أنّ إيمانها الذي اهتزّ للحظة ثبت، لكنها تعاني من عزلة داخلية، ومن عدم فهم المقربين لها، ومن انزواء - لم تكن تترك بمفردها أبداً - ومن وحدة وجودية.

إنّ أصالة متطلباتها الروحية لم تؤدي إلا إلى إماتتها بالمعنى الحرفي للكلمة، وإلى تعذيبها من خلال تضييق الخناق عليها بتناقضات حميمة؛ لأنّ الإيمان، بالنسبة إليها ليس، كما هو الحال بالنسبة إلى الكثيرين، أداة لمراضاة الله، ووسيلة لإثبات الحق، وتبرير الذات والتهرب من المسؤوليات، لكن ما يمزقها هو التساؤل المؤلم عن إلهٍ صامتٍ غامض، إلهٌ مخفي، يعذب نفسه: هل يجب أن نكون مطيعين، وندّعي الغباء، ونستسلم، وننسى أنفسنا، كما تكرر لها والدتها؟ أم يجب أن نتمرد، ونثور، ونطالب بالعطايا والمواهب التي وهبنا الله إياها كما تشجعها على ذلك صديقتها؟ ما هي مشيئة الله؟ ماذا ينتظر منها؟

الخوف من الخطيئة قوّض حيويتها، على عكس صديقتها سيلفي، فقد تمّ تنبيهها أندريه / زازا بشدة لأمور الجنس، حذرت السيدة غالار، بوحشية شبه سادية، ابنتها البالغة من العمر ١٥ عاماً من قسوة الزواج. ألم تختبئ ليلة الزفاف، ((إنها لحظة سيئة نمرّ بها))، لقد كذبت تجربة زازا هذه السخرية؛ إنها تعرف سحر الجنس، والاضطراب، والقبلات التي تبادلتها مع صديقها برنار لم تكن أفلاطونية، إنها تسخر من سخافة العذارى الصغار من حولها، ومن نفاق أصحاب الفكر التقليدي الذين يتجاهلون "يبيّضون" أو ينكرون أو يكتمون فورة الحاجات الأولية لجسدٍ حي، لكن على العكس من ذلك، فهي تعرف نفسها ضعيفة وعرضة للإغراء، وحساسيتها الدافئة، ومزاجها المتحمّس، وحبها الجسدي للحياة يفسدها الإفراط في الحيرة والشك في أدنى رغباتها، كانت تشتبه في الخطيئة، خطيئة الجسد، كان الندم، والخوف، والشعور بالذنب يغمرها، وهذه الإدانة الذاتية كانت تعزز في نفسها إغراءً بنكران الذات، ومذاق العدم وميول التدمير الذاتي المقلقة، وانتهي بها الأمر بالاستسلام أمام والدتها وباسكال اللذين أقنعاها بخطر الخطوبة الطويلة، ووافقت على الذهاب إلى المنفى في إنجلترا بينما كان كيانها بالكامل يرفض القيام بذلك، هذا القيد الشرس الأخير الذي يمارس ضدها يعجل الكارثة.

ماتت زازا بسبب كلّ التناقضات التي كانت تمزقها، في هذه القصة القصيرة، فإنّ دور سيلفي، الصديقة، هو فقط في جعل أندريه تفهم.

كما أظهرت إليان لوكارم- تابون (Eliane Lecarme-Tabone) بوضوح، أنّ القليل من ذكرياتها تظهر، ولا يُعرف أيّ شيء عن حياتها ونضالها الشخصي والتاريخ الحافل بالأحداث لتحررها، وقبل كلّ شيء العداء الأساسي بين المثقفين وأصحاب الفكر التقليدي - هذا الموضوع الذي يشكّل محور مذكرات فتاة صغيرة مرتبة ليس سوى اختصار هنا، ويُفهم مع ذلك أنه ينظر إليها بسوء في محيط أندريه، وبالكاد يتمّ تقبّلها.

بينما يتمتع آل غالار برخاء تام، وجدت عائلتها نفسها، التي كانت في البداية من عائلة برجوازية جيدة، وقد أصابها الإفلاس وانحطت عن مقامها بعد حرب عام ١٩١٤، ولم تسلم من الإذلال الصامت في حياتها اليومية خلال إقامتها في بيتاري، كانت تسريحة شعرها، وخزانة ملابسها مثاراً للاستهزاء، وكانت أندريه تعلّق بشكل خفي فستاناً جميلاً في خزانة ملابسها، لكنّ هناك ما هو أكثر جدية: كانت السيدة غالار تحذر منها، من هذه الفتاة الصغيرة الضالة التي تدرس في جامعة السوربون، والتي ستحصل على وظيفة، وستكسب عيشها واستقلالها، المشهدُ المؤثر في

المطبخ حيث تكشف سيلفي لزازا، وهي مندهشة، ما تمثله بالنسبة لها في الماضي، يشير إلى النقطة التي انعكست فيها علاقة الصديقين.

من الآن فصاعداً، سيحب زازا أكثر من غيرها، أمام سيلفي، سينفتح العالم اللامتناه، بينما تتجه أندريه نحو الموت، لكن سيلفي (سيمون) هي التي ستُعيد الحياة لأندريه بحنان واحترام، ستحييها وتحقق لها العدالة من خلال نعمة الأدب، لا أستطيع الامتناع عن التذكير أنَّ كل جزءٍ من الأجزاء الأربعة من مذكرات الفتاة الأنيقة ينتهي بالكلمات التالية:

((زازا))، ((ستحكي))، ((الموت))، ((موتها))، تشعر سيمون دي بوفوار بالذنب؛ لأن البقاء على قيد الحياة إلى حدٍّ ما خطأً، كانت زازا هي الفدية، حتى أنها ذهبت إلى حدّ كتابة ملاحظات غير منشورة "المضيف" عن هروبها، لكن بالنسبة لنا، ألا تفي قصتها القصيرة بالمهمة المقدسة تقريباً التي أسندتها إلى الكلمات: محاربة الوقت، ومحاربة النسيان، ومحاربة الموت ((لإنصاف هذا الحضور المطلق للحظة، إلى هذا خلود هذه اللحظة التي ستكون إلى الأبد))؟

الفصل الأول

عندما كان عمري تسع سنوات كنت طفلة عاقلة جداً؛ في بعض الأحيان وخلال طفولتي الأولى كان استبداد الكبار يضعني في حالات غاضبة لدرجة جعلتْ إحدى عمّاتي تقول بشكل جدّي ذات يوم: ((إنّ سيلفي يعتريها الشّيطان))، لقد تملّك الحرب والدين منّي، وأظهرتُ على الفور بطولة مثاليّة عندما دُستُ بأقدامي على لعبة بلاستيكيّة (صنعت في ألمانيا) علاوة على ذلك لم أكن أحبّها، علّموني أنّ تصرّفي جيّد وخشيتي من الله ستنقذ فرنسا، ولم أكن أستطيع أن أتهرّب من تلك الفكرة، كنت أتنزه في ساحة كنيسة القلب المقدس مع فتيات أخريات ونحن نرفَعُ راياتٍ ونغنّي بدأتُ أصلّي بشدّة، وتعودت على ذلك.

شجعني القسّ دومنيك، قسيس ثانوية ادلاييد، على مواظبة إيماني، لبست ثوباً من الحرير وسرحت شعري مع تخريمة ايرلندية، وقمت بقرباني الخاصّ بي، واعتباراً من ذلك اليوم بدأوا يقدّموني كمثال أمام أخواتي الصغيرات، أخبروني أنّ أبي كان تمّ نقله لوزارة الحرب بسبب قصورِ في

القلب، وفي ذلك الصباح كنت مهتاجة جداً فقد كان اليوم الأول في المدرسة، وكنت على عجلة من أمري كي أعود للمدرسة وأن أرى مظاهر الارتسام للصفوف الرسمية كما في القداديس، وأن استمع لصمت الممرات، وأن أرى الابتسامة الرقيقة للآنسات؛ كن يلبسن تنورات طويلة وقمصاناً مرتفعة، ومنذ أن تحوَّل جزءٌ من البيت إلى مشفى كنّ يلبسنَ غالباً لباس الممرضات، وتحت الحجاب الأبيض المزين ببقع باللون الأحمر كنّ يشبهن القديسات، كنت متأثرة عندما كن يضممنني لصدورهنّ، كنت أشرب الحساء بسرعة وأبتلع الخبز الرمادي الذي حلّ محلّ الشوكولا والحلوى في زمن ما قبل الحرب، وأنتظر بفارغ الصبر أن تنتهي أمي من مساعدة أخواتي في لباسهنّ، ونحن الثلاثة كنا نلبس معاطف طويلة زرقاء كالأفق، ومفصلة من ثوب عسكريٍّ حقيقي، تمّ تفصيلها تماماً كما تُفصّل المعاطف العسكرية.

كانت أمي تقول لصديقاتها المعجبات أو المندهشات: ((انظرنَ حتى نه هناك عقدة من الصوف على ثيابها))، وهي تخرج من البناء أخذت أمي ختيَّ الصغيرتين وأمسكت بيديهما، مررنا بحزن أمام قهوة لاروتوند التي حت منذ وقت قريب أسفل بنائنا، والتي كانت كما قال أبي ملجأ نهزمين، بدت لي في هذه الكلمة إشكالية: ((إنهم أناسٌ يعتقدون بهزيمة سا كما شرح لي أبي))، ((علينا أن نعدمهم جميعاً))، لم أكن أفهم كلامه،

نحن لا نتعمَّد فهم ما نفهمه: هل يمكن أنّ نعاقب لأنّ بعض الأفكار تخطر على بالنا؟ كان العملاء الجواسيس يوزِّعون حلوىً مسمومة للأطفال، وهؤلاء الذين يخزون النساء الفرنسيات في المترو بإبرٍ سامّة تؤدّي إلى الموت الحتمي كانوا بالطبع يستحقون الموت، لقد كان المنهزمون يجعلوني في حيرة من أمري، ولم أعد أحاول أن أسأل أمي فهي كانت تجيبني دائماً بنفس الإجابات التي كان يقولها أبي، لم تكن أختاي تمشيان بسرعة، وقد بدت لي شبكة حديقة لوكسمبورغ بلا نهاية، وفي النهاية مررت بجانب باب المدرسة، صعدت الدرج وأنا أُأرجح بفرحٍ حقيبتي المتفخة بالكتب الجديدة؛ تعرفت إلى الرائحة الخفيفة التي تسبب المرض، والتي تنشأ من راحة الطلاء في الممرات المطليَّة حديثاً؛ عانقتني مراقبات المدرسة.

في غرفة الملابس، التقيت بصديقات العام الماضي، لم أكن على علاقة بأية واحدة منهن بشكل خاصّ، لكنني أحب الضَّجة التي كن نقوم بها معاً، كنت أتأخر في الفناء الكبير أمام الواجهات المليئة بالأشياء القديمة الميتة التي كان ينتهي بها المطاف بالموت مرة أخرى، كانت العصافير غزيرةُ الريش تفقد ريشها، والنباتات الجافة تتفتت والصُدف تذبل، رنّ الجرس ودخلت الى قاعة القديسة مارغريت؛ كلّ القاعات الدراسية متشابهة، والتلاميذ يجلسون حول طاولة بيضوية مغطاة بقماش أسود، يرأس الجلسة الأستاذ؛ وأمهاتنا تتوضع خلفنا وتراقبننا وهنَّ يحكن قبعات من الصوف،

اتجهت نحو كرسيي، ورأيت أنّ فتاة صغيرة جديدة في الصف شغلت الكرسي المجاور لي، كانت سمراء، خدودها غائرة وبدت أصغر سناً مني؛ عيونها غامقة اللون براقة، وكانت تحدق إلي بقوة.

- هل أنت أفضل تلميذة في الصف؟

- قلت: اسمي سيلفي لوباج، وأنت، ما اسمك؟

- اسمي أندريه غالار، عمري تسع سنوات، وإذا كنت أبدو أصغر سناً فذلك لأنني قد احترقت وأنا حيّة ولم أعدْ أكبر، كان علي أن أقطع دراستي لمدة عام، لكنّ أمي كانت تريد أن أعوض تأخيري، هل تستطيعين أن تعيريني دفاتر العام الماضي؟

قلت لها: نعم.

ثقةُ أندريه بنفسها وسرعة كلامها الدقيق يجعلانني مضطربة، كانت تتفحصني بحذر.

- قالت لي زميلتي، وأشارت إلى ليزيت بحركة من رأسها، إنك كنت أفضل تلميذة، هل هذا صحيح؟

- قلت بتواضع: أنا غالباً الأولى.

كنت أتفحص وجه أندريه؛ شعرها الأسود ينساب بشكل مشدود على وجهها، لديها شامة عند الذقن، لا تقابل كلّ يوم فتاة صغيرة حُرقت

حية، كنت أودّ أن أطرح عليها العديد من الأسئلة لكن الآنسة ديبوا دخلت علينا، كان ثوبها الطويل يكنس المنصة، كانت امرأة حيويّة لها شعر طويل على وجهها، أحترمها كثيراً، كانت تجلس وتنادي الطلاب بأسمائهم: رفعت عينيها على أندريه وقالت:

- حسنا يا صغيرتي ألا تشعرين بالخجل كثيراً؟

- لست خجلة يا آنسة، قالت أندريه بصوت واثق؛ وأضافت بلطافة، ومن جهة أخرى، أنتِ لا تشعريني بالخجل.

كان الخروج من المدرسة يتمّ وفق طقس غير قابل للتغيير؛ الآنسة متمركزة كجندي على الباب، تسلم باليد على كلّ الأمهات، وتقبّل الأم كلّ طفل على جبينه، وضعت يدها على كتف أندريه:

- أنتِ لم تذهبي إلى المدرسة من قبل؟

- لا؛ حتى الآن كنت أعمل في المنزل، لكنّني أنا الآن كبيرة جداً.

- قالت الأنسة: آمل أنك ستسيرين على خطى أختك الكبرى.

-قالت أندريه: أوه! نحن مختلفتان تماماً، مالو تشبه أباها، تحب الرياضيات، أما أنا فأحب الأدب بشكل خاصّ.

دفعتني ليزيت بكوعها؛ لم نكن تستطيع القول إنّ اندرية كانت وقحة لا تحسن التصرف، لكنها لم تكن تحسن التكلم مع الأستاذ.

- هل تعرفين أين تقع صالة الدراسة الخارجية؟

أجابت الآنسة: إذا لم يأتي أهلك للبحث عنك على الفور عليك أن تجلسي في تلك القاعة وتنتظريهم.

قالت أندريه: لا أحد سيأتي للبحث عني، فأنا سأعود لوحدي إلى البيت، ثم أضافت بحيويّة:

- لقد أخبرت أمي إدارة المدرسة

- وحدكِ؟ قالت الآنسة دوبوا، وهزت كتفيها.. أخيراً، إن كانت والدتك قد أخبرت المدرسة فلا بأس...

وقبلتني بدوري على جبهتي، وتبعتُ أندريه إلى غرفة الملابس، لبستْ معطفها، كان معطفاً أصلياً، أقلّ جودةً من معطفي لكنه جميل جداً؛ من قماش الراتين الصوفي السميك باللون الأحمر مع أزرار ذهبية؛ لم تكن طفلة شوارع، فكيف يُسمح لها بالخروج بمفردها؟ ألم تكن والدتها لم تكن على علمٍ بخطر الحلوى المسمومة، والإبر السامة؟

((أين تسكنين، يا صغيرتي أندري؟)) سألتها أمي بينما كنا ننزل الدرج مع أختي الصغيرتين.

- أجابت: شارع دي غرونيل.

- قالت أمي: حسناً! سنرافقك حتى جادة سان جيرمان، هذا طريقنا.

قالت أندريه: سيكون ذلك من دواعي سروري، لكن لا تزعجي نفسك من أجلي.

نظرت إلى أمي بجدية: أتفهمين يا سيدتي، نحن سبعة أخوة وأخوات؛ أمي تقول علينا أن نتعلم كيف نتدبر أمرنا وحدنا.

هزّت أمي رأسها، لكن من الواضح أنها لم تكن موافقة على ذلك.

على الفور في الشارع، سألتُ أندريه

- كيف حرقتِ نفسك؟

- أثناء طهي البطاطا، على أحد مواقد نار المخيم؛ اشتعلت النيران في ثوبي وكان الفخذ الأيمن مشوياً حتى العظم.

أومأت أندريه بحركة صغيرة عبّرت عن فراغ صبرها، كانت هذه القصة القديمة تزعجها.

قالت لي: متى يمكنني رؤية دفاترك؟ يجب أنا أعرف ما درستموه العام الماضي، قولي لي أين تسكنين وسوف آتي إليك بعد ظهر اليوم؛ أو غداً.

نظرتُ بطرف عيني إلى أمي، في حي اللوكسمبورغ، كانوا يمنعوني من اللعب مع الفتيات الصغيرات اللاتي لم أكن أعرفهن.

-قالت أمي بشيء من الضيق: هذا الأسبوع غير ممكن، سنرى ذلك يوم السبت.

- قالت أندريه: حسناً؛ سأنتظر حتى يوم السبت.

نظرت إليها وهي تعبر الشارع بداخلها وهي ترتدي معطفها المصنوع من قماش الراتين الصوفي الأحمر كانت حقاً جداً صغيرة، لكنها كانت تسير بالتأكيد بثقة شخص كبير.

- قالت أمي بصوت حالمٍ: كان عمّكِ جاك يعرف أناساً من عائلة غالار كانوا على صلة قربى بعائلة لافيرنييه أبناء عمّ عائلة بلانشار، أتساءل إن كانوا من نفس العائلة، لكني أتساءل إن كان الأشخاص اللائقون تماماً سيتركون طفلة في التاسعة من عمرها تركض في الشوارع.

تناقشَ والديّ لمدة طويلة عن فروع مختلفة لمختلف عائلات غالار التي سمعوا عنها من القريب والبعيد، راحت أمي تستعلم عن ذلك لدى

تلك الآنسات، لم يكن لأهل أندريه إلاّ علاقات غامضة مع عائلة غالار من طرف العم جاك، لكنّهم كانوا أناساً طيبين جداً، كان السيد غالار خريج المدرسة متعددة العلوم والفنون- بوليتكنيك- وكان لديه وضعاً جيداً عند شركة سيتروين، وكان يرأس رابطة العائلات الكبيرة؛ أمّا زوجته المولودة في منطقة ريفيير دو بونويّ، فهي تنتمي لسلالة كبيرة من الكاثوليكيين المناضلين، وكانت تلقى احتراماً شديداً من قبل خوارنة كنيسة سان توماس داكوان.

أتت السيدة غالار لتبحث عن أندريه يوم السبت المقبل بعد خروجنا من الدروس، بعد أن أخطرتْها بلا شكٍّ أندريه بتردّد أمي، كانت امرأةً جميلة ذات عينين غامقتي اللون، تلفّ حول عنقها وشاحاً أسود اللون وقد ربطته بحليّ قديمة، راحت تحاول أسرَ أمي بقولها إنها تبدو كأختي الكبرى ودَعَتْها "سيدتي الصغيرة"، أما أنا فلم أكن أحبّ قلادتها ووشاحها.

روت السيدة غالار لأمي بلطف عذاب أندريه: جلدها المتشقق، الندبات الكبيرة، الضمادات المعالجة بالعنبر، هذيان أندريه وشجاعتها، وكيف أنّ أحد زملائها الصغار رَكَلها وهو يلعب، فانفتحت جروحها، وقد قامت بمجهود كبير كي لا تصرخ إلى أنْ أغمي عليها، عندما أتت إلى البيت كي ترى دفاتري، كنتُ أتأملها باحترام، كانت تدوّن ملاحظات وكتابتها

جميلة، كنتُ أفكر بفخذها المنتفخ تحت التنورة ذات الثنيات، لم يحصل أبداً أمرٌ مهمٌّ كهذا، وفجأة انتابني شعور أنه لم يحصل معي شيء على الإطلاق.

كلّ الأطفال الذين عرفتهم يضجرونني؛ لكن أندريه كانت تجعلني أضحك، عندما كنا نتنزّه بين الصفوف في ساحة الفرصة المدرسية؛ كانت تقلّد ببراعة الحركات المفاجئة للآنسة دوبوا والصوت العذب للآنسة فاندرو مديرة المدرسة، وكانت تعرف الكثير من الأسرار الصغيرة للمنزل التي أخبرتْها بها أختها الكبرى: تلك الآنسات يتبعنَ النظام اليسوعي، يعلقن شريطة على طرف لباسهن طالما أنهن كن مبتدئات، ويعلقنها في المنتصف عندما ينذرن النذور، كانت الآنسة دوبوا الأصغر سناً وعمرها ثلاثون عاماً فقط، وقد حصلت على شهادة الثانوية العام الفائت، وهناك طالبات كبيرات قد شاهدنها في جامعة السوربون وكانت محرجة من تنورتها.

كانت قلّة احترام أندريه يفضحنا بعض الشيء، لكنّي كنتُ أجدها مضحكة، وكنتُ أجد لها الردّ عندما كانت ترتجل حواراً بين اثنين من الأساتذة، كانت سخرياتها صحيحة جداً وكنّا غالباً ما ننكز بعضنا بعضاً بطرف أكواعنا خلال الدرس ونحن نرى الآنسة دوبوا وهي تفتح سجلاً أو

تغلق دفتراً ؛حتّى أنّه ذات مرة انتابتني موجة عارمة من الضحك كانت ستجعل الآنسة تطردني من الصف لو لم تكن مجمل تصرّفاتي مثالية بنّاءة.

المرة الأولى التي ذهبتُ فيها لألعب في بيت أندريه أصبتُ بالذهول، فبالإضافة إلى إخوتها وأخواتها، كان هناك في شارع غرونيل مجموعات من أولاد العم والأصدقاء، كانوا يركضون ويصرخون ويغنون يضعون الأقنعة ويقفزون على الطاولات ويقلبون الأثاث؛ أحياناً كانت الآنسة مالو ذات الخمسة عشر عاماً، التي تدعي أنها مهمة، تتدخل، لكننا كنا نسمع حالاً صوت السيدة غالار: ((دعي هؤلاء الأطفال يمرحون))، كنتُ مندهشة من لامبالاتها بالنسبة للجروحات والبقع والندبات والصحون المكسورة.

- قالت أندريه بابتسامة منتصرة: إنّ أمي لا تغضب أبداً.

وفي نهاية بعد الظهر، دخلت السيدة غالار وهي تبتسم، إلى الغرفة التي زرعنا فيها الفوضى، رفعتْ كرسياً ومسحتْ جبهة أندريه وقالتْ لها:

- ((ها أنتِ تتصببين عرقاً!))..

ضمّتها أندريه إليها، وللحظة تغيّر وجهها: أشحتُ بنظري وأنا منزعجة حيث داخلني بلا شك نوع من الغيرة، وربما الحسد، وهذا النوع من الخوف الذي يتولّد من الغموض.

علموني أنه يجب أن أحب أمي وأبي، ولم تكن أندريه تخفي ميلها نحو أمها أكثر من أبيها، قالت لي يوماً بكلّ راحة: ((أبي جديٌّ أكثر من اللازم))، كان السيد غالار يشعرني بالارتباك لأنه لم يكن يشبه أبي، لم يكن أبي يذهب أبداً إلى القداس وكان يبتسم عندما كانوا يحدثونه عن معجزاتٍ قديسة منطقة لورد؛ سمعته يقول إنه لا يدين إلا بدين واحد: حب فرنسا، لم أكن أنزعج من أنه ملحدٌ؛ أمّا أمي التي كانت متديّنة جداً كانت تجد ذلك عادياً؛ إنّ علاقة رجل رفيع المقام مثل أبي مع الله كانت بالتأكيد أكثر تعقيداً من علاقة النساء والفتيات الصغيرات مع الله، على العكس كان السيد غالار يحضر القداس كلّ يوم أحد مع عائلته، كان له لحية طويلة ويضع نظارات، وخلال أوقات فراغه كان يهتم بالأعمال الاجتماعية، كان شعره المنسدل وخصائله المسيحيّة تعطيه طابعاً نسائياً و تحط من قدره في ناظري، من جهة أخرى، لم يكن أحد يراه إلاّ نادراً، فالسيدة غالار هي من تحكم المنزل وكنت أحسد أندريه على الحرية التي تمنحها إياها، ومع أنها كانت تكلمني أحياناً بثقة كبيرة، لم أكن أشعر أمامها بالراحة.

أحياناً كانت أندريه تقول لي: ((أنا متعبة من اللعب))، فنذهب ونجلس في مكتب السيد غالار، لم نكن نشغل الضوء كي لا يلاحظ وجودنا أحد، وكنا نتحدث، كانت تلك متعة جديدة، أهلي يحدثونني وأتحدث إليهم، لكن لم يكن هناك حوار حقيقيٌّ بيننا؛ مع أندريه كانت لدينا محادثاتنا

الحقيقية مثل محادثات أبي المسائية مع أمي، كانت قد قرأت الكثير من الكتب خلال فترة نقاهتها، وقد أذهلني أنها تعتقد أنّ القصص التي ترويها هذه الكتب قد حصلت بالفعل، كانت تكره بشدة شخصيات أوراس وبوليوكت ومعجبة بدونكيشوت وسيرانو دو بيرجوراك، كما لو أنّ هذه الشخصيات كانت موجودة فعلاً من لحم ودم، فيما يخصّ العصور السابقة كانت تأخذ مواقف مسبقة ومقررة سلفاً، فهي تحب الاغريق في حين كان الرومان يضجرونها؛ لم تكن تهتم لتعاسات لويس السابع عشر وعائلته، وموت نابليون يجعلها تحسّ بالاضطراب.

الكثير من هذه الآراء كان قابلاً لأن يتغير عندها، لكنّ صغر سنها كان يغفر لها ذلك، كانت الآنسات تعجبن بها، وكان يقال في الثانوية " لهذه الطفلة شخصية قوية "، كانت أندريه تتدارك سريعاً تأخرها المعرفي في المدرسة، أتفوق عليها بفارق قليل في المواضيع الإنشائية، وحدث أن حازت شرف كتابة وظيفتيّ إملاء على الدفتر الذهبي، كانت تعزف البيانو بشكل جيد لدرجة أنه تمّ تصنيفها ضمن قائمة الطلاب المتوسطين؛ بدأتْ أيضاً بتعلم دروس الكمان، لم تكن تحب الخياطة لكنها ماهرة فيها، وكانت تقوم بتحضير حلوى الكراميل بمهارة، وعلى الرغم من ضعفها كانت تعرف القيام بالحركات البهلوانية وبالشقلبة في الهواء، لكن أكثر ما كان يعطيها قيمة في نظري يكمن في تلك الصفات الاستثنائية التي لم أعرف

معناها أبداً: عندما تلمح دراقة أو زهرة أوركيد، أو لمجرد ذكر الاسم أمامها كانت أندريه ترتعب وينتصب شعر ذراعيها؛ وتتجلى حينها بشكل يثير الحيرة، تلك الهبة التي منحتها إياها السماء، والتي كانت تذهلني، وهي الشخصية، وكنت أقول في سري: إنّ أندريه كانت بلا شك واحدة من هؤلاء الأطفال الأذكياء الذين سيحكى عن حياتهم لاحقاً في الكتب.

غادر معظم تلاميذ الثانوية باريس في منتصف حزيران بسبب القنابل التي كانت تسقط وبسبب قصف المدافع الثقيلة.

رحلت عائلة غالار الى منطقة لورد؛ في كلّ عام يشاركون في أعمال مقدسة وكبيرة؛ كان ابنهم يقوم بإسعاف جرحى الحرب على النقالة، والفتيات الأكبر سناً يغسلن الأطباق مع أمهنّ في مطبخ المشفى، كانت تثير إعجابي تلك المهام التي تُلقى على عاتق أندريه وكأنها فتاة بالغة، ومع ذلك كنت فخورة بعناد أهلي البطولي ببقائنا في باريس، نظهر لمحتلينا أنّ المدنيين صامدون، وبقيتُ وحيدة في صفي مع تلميذة كبيرة حمقاء عمرها اثنا عشر عاماً وكنت أشعر بأهميتي.

ذات صباح عندما وصلت إلى الثانوية كان الأساتذة والتلاميذ قد التجؤوا إلى القبو، وفي البيت كنا نضحك طويلاً عندما تطلق صافرات الإنذار، لم نكن ننزل إلى القبو، ومستأجرو الطوابق العليا يأتون

ويلتجؤون عندنا، ينامون على الارائك في غرفة الاستقبال، كان ذلك الاضطراب يروقني.

رحلت إلى منطقة سادرناك في نهاية شهر تموز مع أمي وأخواتي، كان جدي الذي تذكر حصار الـ ٧١ يوماً يظن أننا في باريس كنا نأكل الجرذان، وخلال شهرين يزودنا باللحم وبالبيتزا، كنت أقضي أياماً سعيدة، هناك في الصالة مكتبة مليئة بالكتب القديمة والأوراق التي ملأها الصدأ بالثقوب؛ الكتب الممنوعة مصفوفة في الأعلى، وكانوا يسمحون لي أن أنبش بحرية في الرفوف السفلى، كنت اقرأ، ألعب مع أخواتي، وأتنزه، تنزهت كثيراً ذلك الصيف، أمشي في حقول الكستناء جارحة أصابعي في الأحراش، أقطف على طول الطريق الخالي باقات من زهور نبات العسلة والمضاض، أتذوق التوت البري والاربوس والقرانيا وتوت شجيرات البرباريس ذا الطعم اللاذع، وأشتم رائحة القمح الأسود المزهّر الفواحة، كنت ألتصق بالأرض كي أشعر بالرائحة الحميميّة لنبات الخلنج البنفسجي، ثم أجلس في المرج الكبير عند طرف شجر الحور فضي اللون، وأفتح واقرأ رواية لفونيمور كوبر، عندما تعصف الريح كانت أشجار الحور تبدأ بالوشوشة، الريح تثير مشاعري، وكان يبدو لي أنه من طرف الأرض إلى طرفها الآخر أن الأشجار تتحدث فيما بينها وتتكلم مع الله؛ كان ذلك كموسيقا وصلاة تخترقان قلبي قبل أن تصعد إلى السماء، رغباتي لا حصر لها ومن الصعب الحديث عنها، لم

أرسل لأندريه إلاّ بضع بطاقات بريدية؛ ولم تراسلني أبداً، كانت تعيش في منطقة ليلاند عند جدتها أم أمها، تمتطي صهوة الحصان وتتسلى كثيراً؛ ولن تعود إلى باريس إلاّ في منتصف تشرين أول، لم أكن أفكر بها غالباً، خلال العطلة، لم أكن أفكر أبداً بحياتي في باريس.

أذرف بعض الدموع وأنا أودع شجر الحور، كنت أهرم، وأصبح عاطفية، لكن في القطار أتذكر كم أحب بداية العودة للمدرسة، أبي ينتظرنا عند رصيف المحطة يرتدي لباسَه الموحد باللون الأزرق كلون الأفق، يقول: إنّ الحرب ستضع أوزارها قريباً، تبدو كتب المدرسة جديدة أكثر من السنوات السابقة، أكبر وأجمل وتطقطق صفحاتها تحت أصابعنا، رائحتها زكية؛ في حديقة لوكسمبورغ هناك رائحة فوّاحة وعطرة؛ كانت رائحة الأوراق الميتة والأعشاب المحروقة؛ عانقتني الآنسات بحرارة، وهنّئنني على وظائفي في العطلة التي استحقت كلّ ثناء وتقدير، لكن لمِ كنتُ أشعر بالتعاسة؟

في المساء بعد العشاء، استقريتُ في الصالون، أقرأ وأكتب قصصاً على دفتري، أختيّ تغرقان في النوم، وفي عمق الممرّ أبي يقرأ كتاباً لأمي، كانت أفضل اللحظات في النهار، هكذا أبقى نائمة على السجادة الحمراء من دون أفعل أي شيء وأنا في حالة ذهول، أنظر إلى الخزانة النورانية وإلى الساعة

المصنوعة من الخشب المنحوت التي تضمّ في عمقها تفاحتين من النحاس وظلمات الزمن، وفي الحائط كانت مدفأة الحطب تفتح فاها، وعبر التعريشة المذهّبة نشعر بدفء اللفحة المثيرة للغثيان التي كانت تصعد نحو الأعلى من تلك الثغرة المخيفة، كلّ تلك الفوضى الصامتة من حولي تجعلني في حالة خوفٍ مفاجئ، كنتُ أسمع صوت أبي فأعرف عنوان الكتاب ***دراسة حول عدم المساواة بين الأنواع البشرية بقلم الكونت دومينو***؛ في العام الفائت كان يقرأ كتاب ***أصول فرنسا المعاصرة للكاتب تين (Taine)***، وفي العام المقبل سيبدأ بقراءة كتاب جديد، وأنا سأكون هنا أيضاً بين الساعة والخزانة، لِكم من السنوات؟ ولِكم من السهرات؟

إنّ الحياة لم تكن سوى أن نقتل نهاراً بعد نهار، هل سيقتلني الملل هكذا حتّى مماتي؟ أقول لنفسي إنّني كنتُ أفتقد مطعم سادرناك في باريس؛ وقبل أن أنام كنتُ أذرف بعضاً من دموعي في ذكرى أشجار الحور.

بعد يومين علمتُ الحقيقة بسرعة خاطفة، كنتُ داخلة إلى صالة سانت كاترين عندما ابتسمت أندريه لي؛ ابتسمتُ لها ومددتُ يدي:

– منذ متى عدتِ؟

- البارحة مساء.

نظرتْ إليّ أندريه بخبث.

- بالطبع، هل كنتم هنا يوم العودة إلى المدرسة؟

-قلتُ لها: نعم، وأضفتُ: هل قضيتم عطلة جيدة؟

- كانت عطلة جيدة جداً، وأنتم؟

- جيدة جداً.

تحدّثنا عن أشياء تافهة، وعن الأشخاص الكبار، لكني فجأة فهمت، بذهول وفرح، أنّ فراغ قلبي والذوق الكئيب والطابع الكئيب لأيامي لم يكن مردّه إلا إلى سبب واحد، غياب أندريه، لم تكن الحياة من دونها تستحق أن تسمّى كذلك، جلست الآنسة فيلونوف على مقعدها الخشبي وأخذت أكرر بيني وبين نفسي: لن أعيش من دون أندريه، ثمّ تبدّل فرحي إلى قلق، لكن عندها سألتُ نفسي:

- كيف سيكون حالي إذا ماتت؟ سوف أجلس إلى هذا الكرسي وستدخل المديرة وتقول بصوت حادّ: فلنصلِّ يا أطفالي، لقد استدعى الله في الليلة الفائتة صديقتكم أندريه غالار، قررتُ في نفسي، حسناً، وأنا سأنزلق من كرسيّ وأموت أيضاً، لم تكن الفكرة تخيفني، لأننا سوف نلتقي مجدداً عند أبواب السماء.

في تاريخ ١١ نوفمبر احتفلنا بعيد الهدنة، في الشارع كان الناس يعانقون بعضهم بعضاً، خلال أربع سنوات كنتُ أدعو أن يأتي هذا اليوم العظيم، وكنت أنتظر معه تحولات مذهلة، وكانت ذكرياتٌ عابرة تعود إلى قلبي.

لبس أبي من جديد لباسه المدني، لم يحدث أيّ شيء آخر، كان يتكلم باستمرار عن مدينة نهبها البلاشفة؛ أولئك الرجال البعيدون الذين كان اسمهم يشبه بشكل خطير اسم أناس أنذال يبدو أنّهم يتمتعون بقدرات فظيعة، وكان الجنرال فوش يسمح لنفسه بالتحرك بهامش حريّة كبير، كان عليه أن يمضي حتى مدينة برلين.

كان أبي يتنبأ بشكل سيّئ المستقبل، بحيث لم يكن يجرؤ على فتح مكتب أعماله، وجد عملاً في شركة تأمين، لكنّه أخبرنا أن علينا أن نقلل من نشاطات حياتنا، سرّحت أمي العاملة إليزا التي تتصرف بشكل سيء - كانت تخرج مساءً مع عمال الإطفاء- وراحت تقوم بكلّ أعمال المنزل؛ وفي المساء كانت عابسة، وأبي أيضاً، أخواتي تبكين غالباً، أما أنا فلم يتغير حالي فلديَّ أندريه.

كانت أندريه تكبر وتقوى؛ وكنتُ قد تخليتُ عن فكرة أنّها قد تموت، لم تنظر الثانوية بإحسان إلى صداقتنا، كانت أندريه تلميذة لامعة، لم أكن

أجلس في المقعد الأول إلا لأنها كانت تكرهه، كنتُ أُعجب بعدم اهتمامها من دون أن أستطيع تقليدها، مع ذلك لقد فقدتْ حماس تلك الآنسات، تنظر إليهن على أنهنّ ساخرات، ويحكمن عليها أنها متناقضة ساخرة ومتعالية، وكنَّ يعاتبنها بأن لديها أفكاراً سيئة.

لم ينجحن أبداً في أن يلتقطنها بالجرم المشهود في تصرف وقح؛ لأن أندريه كانت تحتفظ بعناية بمسافة بينها وبينهن، وربما هذه هي النقطة التي تثير حفيظتهن بشدة.

صالة الحفل مليئة، في الصفوف الأولى جلست البنات الطفلات اللواتي كنَّ يرتدين أجمل الثياب المزرزرة والمجعّدة ، ولديهن عقد على شعورهن، وخلفهن اصطفّ الأساتذة والمراقبات، وهم يلبسون المريول الحرير والقفازات البيضاء؛ وفي نهاية القاعة تجمّع الأهل والمدعوون، أندريه تتقنّع وتلبس ثوباً أزرق من الحرير الملتوي، وكانت تعزف مقطوعة موسيقية رأت أمها أنها صعبة جداً عليها، وكانت تشوّه بعضاً من علاماتها، كنتُ منذهلة وحساسة وأنا أشعر بتلك النظرات السيئة النية بعض الشيء وهي تنصبّ عليها، وكيف كانت تتعامل مع ذلك المقطع الشائك؛ وتعزفه من دون أي خطأ وتنظر إلى أمها نظرة انتصار ومدّت لها لسانها، والفتيات

الصغيرات يرتجفن في أماكنهنّ، وكانت بعض النساء تسعلن من الفضيحة، وكانت الآنسات يتبادلن النظرات بينهن وبين المديرة التي احمرّ وجهها.

عندما نزلت أندريه عن المنصة ركضت نحو أمها وضمتها وهي تضحك من قلبها ولم تجرؤ الآنسة فاندرو على تعنيفها، و لكن بعد أيام من ذلك الحدث اشتكتْ لأمي من التأثير السيء الذي تمارسه أندريه عليّ!

كنا نثرثر في الصف فأضحك استهزاءً وأخفي نفسي، كانت تتحدث عن الفصل بيني وبينها خلال الدروس وقد قضيتُ أسبوعاً في حالة من القلق.

أقنعت السيدة غالار التي كانت تقدر اندفاعي واجتهادي، بسهولة أمي أن تتركنا بسلام وبما أنهن كنّ زبونات ممتازات، فأمي لديها ثلاثة فتيات والسيدة غالار لديها ستة والكثير من اللباقة، وبقينا نجلس الواحدة بجانب الأخرى كما كنا في الماضي.

هل كانت أندريه ستشعر بالتعاسة لو منعونا أن نلتقي؟ ستكون أقل تعاسة مني بالتأكيد. كانوا يلقبوننا بالفتاتين اللتين لا تفترقان، وكانت تفضّلني على كلّ صديقاتنا، لكن يبدو لي أن عشقها لأمها يجعل مشاعرها الأخرى تذبل وتضعف، عائلتها تعني الكثير بالنسبة لها؛ كانت تقضي أوقاتاً طويلة في تسلّية الفتاتان التوأم، وهي تسبّحهن، وهي تلبّس تلك الاجساد

الصغيرة الممتلئة؛ تجد معنى في صرخاتهن، في همساتهن وحركاتهن غير الواثقة، تدّلعهن بحب، من ثم هناك الموسيقا التي تأخذ حيزاً كبيراً في حياتها، عندما كانت تجلس إلى البيانو، وعندما كانت تثبت كمانها إلى طرف عنقها تسمع بخشوع الغناء الذي ينشأ من تحت أصابعها.

أعتقد أنني كنت أسمعها تتحدث إلى نفسها، بالنظر لهذا الحوار الطويل الذي كان يتتابع بسريّة في قلبها، تبدو لي محادثاتنا طفولية أحياناً، كانت السيدة غالار التي تجيد عزف البيانو، ترافق القطعة الموسيقية التي تعزفها أندريه على الكمان، حينها أشعر بنفسي معزولة، نعم، لم يكن لصداقتنا بالنسبة لأندريه نفس الأهمية بالنسبة لي، لكنني كنت معجبة بها كثيراً لدرجة لم تجعلني أعاني الألم من ذلك.

في العام التالي، ترك أهلي الشقة في جادة مونبارناس، وانتقلوا للسكن في شارع كاسيت في شقة صغيرة لم يكن لي فيها أية زاوية خاصة بي، كانت أندريه تدعوني كي آتي وأدرس في بيتها بقدر ما كنت أرغب بذلك، في كلّ مرة أدخل غرفتها أتأثر لدرجة أودّ معها القيام بإشارة الصليب. فوق السرير كان هناك صليب من خشب البقس، مقابله هناك تمثال القديسة آن دافنشي؛ وعلى المدخنة صورة للسيدة غالار وصورة تمثل قصر بيتاري؛ وعلى الرفوف حيث مكتبة أندريه الشخصية، هناك كتب مثل دون كيشوت، أسفار

غليفر، *أوجيني غراندي* ورواية تريستان وإيزو التي كانت تحفظ مقاطع منها عن ظهر قلب؛ كانت تحب عادةً الكتب الواقعيّة أو الساخرة، وكان تفضيلها لتلك الملحمة العشقيّة يشعرني بالاضطراب.

كنتُ أُسأل بقلق الجدران والأشياء التي كانت تحيط بأندريه، أودّ أن أعرف بماذا تفكر وهي تمرر قوس كمانها على الأوتار، أودّ أن أعلم لماذا يبدو عليها أنها بعيدة، تبدو لي كئيبة وهي تعزف مع كلّ هذا الشغف النابع من القلب، وهذا الاهتمام والعطاء، لقد كانت ديّنة جداً وتقية جداً. عندما أذهب للصلاة في الكنيسة، يحصل أن أفاجئها وهي جاثية على ركبتيها في طرف المعبد، تضع رأسها بين يديها أو تمدّ ذراعها إلى الصليب، هل كانت تفكّر أن تتفرغ للدين فيما بعد؟ مع ذلك كانت تتعلق بحريتها ومتاع هذا العالم، عيونها تلمع وهي تروي عطلاتها الصيفية، تمضي ساعات وهي تمتطي صهوة الحصان عبر غابات السرو التي تخدش أغصانها القريبة وجهها، تسبح في مياه السبخات الراكدة وفي المياه الجارية لنهر آدور، هل تلك هي الجنة التي تحلم بها عندما تبقى بلا حراك أمام دفاترها ونظراتها التائهة؟

ذات يوم لمحتني وأنا أراقبها وضحكت بحرج:

-هل تجدين أنني أضيع وقتي؟

-أنا! لا! على الإطلاق.

عاينتني أندريه بهيئة فوقية.

-ألا يحدث أبداً معكِ أن تحلمي بأشياء؟

قلت بتواضع: لا، وبماذا أحلم؟ كنتُ أحبّ أندريه فوق أيّ اعتبار آخر، وكانت بقربي، لم أكن أحلم، كنتُ أعرف دائماً دروسي، أهتمّ بكلّ شيء، وأندريه تسخر مني قليلاً؛ وتسخر إلى حدٍّ ما من كلّ الناس؛ كنتُ أقبل بروح مرحة سخريتها، في إحدى المرات، جرحتني بعمق. وفي تلك السنة وبشكل استثنائي، كنتُ أمضي عطلة عيد الفصح في منطقة ساديرناك، اكتشفتُ الربيع فيها وكنتُ مذهولة، حلست إلى طاولة في الحديقة، وأمامي أوراق بيضاء، وخلال ساعتين وصفت لأندريه العشب الشائك لزهرة الربيع الجديدة، ورائحة الجليسين، وزرقة السماء وتقلّبات روحي الكبيرة، لم تكن تردُّ على كتاباتي، عندما رأيتها في غرفة الملابس في الثانوية، سألتها بعتب:

-لماذا لم تراسليني؟ هل لأنك لم تستلمي رسالتي؟

-لقد استلمتها.

-حسناً أنت كسولة قذرة.

بدأت أندريه بالضحك.

-اعتقدتُ أنك أرسلتِ لي بالخطأ إحدى وظائف العطلة.

احمرّ وجهي: وظيفة؟!

-قالت أندريه: حسناً لم تتفتق عبقريتك بهذا الأدب كلها من أجلي وحدي! أنا واثقة أنها أحد مسودات الإملاء ((موضوع وصف الربيع)).

-لا، كانت بلا شك أدباً سيئاً، لكني كتبتُ الرسالة من أجلكِ أنتِ وحدك.

اقتربت فتيات عائلة بولار، وكنّ فضوليات، وتوقفنا عند هذا الحديث، لكنني في الصف، كنتُ أملُّ من درس اللاتيني، وجدت أندريه رسالتي مثيرة للسخرية، كان ذلك يؤثّر فيّ؛ بخاصّة أنها لم تكن تشكّ أنني في حاجة لأن أشارك كلّ شيء معها، هذا ما كان يؤسفني أكثر من أي شيء آخر، كانت تجهل قطعياً تلك المشاعر التي أكنّها لها، وقد تيقنتُ مؤخراً من ذلك.

كنا نخرج سوية؛ لم تعد أمي ترافقني، وأعود بشكل اعتيادي مع أندريه؛ فجأة وضعت ساعدها وشبكته بساعدي، كانت تلك الحركة لاأخلاقية، فهناك دائماً مسافة بيننا.

- قالت بحماسة: سيلفي، أتأسف عما قلته لك قبل قليل ;لقد كان شيئاً من الخبث البحت.

-أعرف تماماً أنّ رسالتك لم تكن أبداً وظيفة عطلة.

- قلت: أظنّ أنها كانت مضحكة؟

-على الإطلاق، في الحقيقة كانت مُزاحاً ساحقاً، وفي اليوم الذي استلمتُها فيه، كنتِ تبدين بهيئة نشطة.

- سألتها: ولماذا كنتِ بمزاج معكر؟

حافظت أندريه على صمتها قليلاً.

-هكذا بلا سبب، من أجل كلّ شيء.

ثم ترددتْ: أنا متعبة من كوني طفلة.

قالت ذلك فجأة.

-ألا تجدين أن ذلك بلا نهاية؟

نظرتُ إليها بذهول؛ كانت أندريه أكثر حرية مني، وأنا ومع أنّ منزلي لم يكن سعيداً، لم أكن أرغب في أن أهرم؛ إنّ فكرة أنّ عمري ستة عشرة كانت تخيفني.

- قلتُ لها: لا، حياة الأشخاص الكبار تبدو لي مملة جداً؛ كلّ الأيام تبدو متشابهة، إننا لا نتعلّم أيّ شيء.

- قالت أندريه بصبر فارغ: ليست وحدها الدراسة ذات قيمة في الحياة.

أردتُ أن أعترض وأقول: ((ليس هناك فقط الدراسة، هناك أنتِ)).

لكننا غيرنا الحديث، قلتُ بتعاسة لنفسي: في الكتب، يبوح الناس لبعضهم بتصريحات الحب والكراهية، ويجرؤون عن الحديث عمّا يعتمر في قلبهم، لماذا هذا الأمر مستحيل في الحياة؟ بإمكاني أن أمشي نهارين وليلتين من دون أن آكل أو أشرب، فقط لكي أرى أندريه وأمنع عنها تعاستها، وهي لم تكن تعلم شيئاً!

خلال عدة أيام كنتُ أستعيد هذه الأفكار بحزن، وخطرت لي فكرة: سوف أقدّم هدية لأندريه في عيد ميلادها.

لا يمكن توقع ردود فعل الأبوين؛ في العادة أمي ترى أنّ مبادراتي عبثيّة؛ وقد وافقت على فكرة هذه الهدّية، قررت أن أغلف حقيبة يد وتكون في غاية الأناقة بناءً على فكرة صاحب محل "الموضة العمليّة"، اخترت حريراً أحمر وأزرق اللون مطرزاً بالذهب، سميكاً وناعم الملمس، كان يبدو لي جميلاً كأنّه حكاية. وضعته على منصة من الخشب صنعتها بنفسي، أكره الخياطة، لكنني كنت أبذل قصارى جهدي إلى أنّ أنهي ذلك، وعندما أنهيت

العمل كان الغلاف ذو مظهر جميل جداً بالقماش الحريري مع بطانة باللون الكرزي و كورنيشاته المرافقة، غلفتُ الهدية بورق حرير ومددتها داخل علبة قمتُ بترتيبها وربطها بعناية، في اليوم الذي بلغتْ فيه أندريه عامها الثالث عشر، رافقتني أمي الى تحلية عيد الميلاد؛ كان هناك عددٌ لا بأس به من المدعوّين الذين وصلوا قبلنا، شعرت بخجل وأنا أمدّ العلبة لأندريه،

- قلت: هذا من أجل عيد ميلادك.

نظرت إليّ بدهشة:

- أضفت: لقد صنعتها بنفسي.

نزعت أندريه الغطاء الصغير واحمرت وجنتاها:

- سيلفي! إنها تحفة رائعة كم أنتِ لطيفة! بدا لي حينها أنه لو لم تكن أمهاتنا حاضرات لعانقتني.

- قالت السيدة غالار بصوتها الضعيف: اشكري أيضاً السيدة لوباج لأنها من دون شك هي من اعتنت بكلّ شيء.

- قالت أندريه باقتضاب: شكراً سيّدتي، ومن جديد ابتسمت لي بهيئة متأثرة، وفي حين كانت أمي تمتعض بصوت خافت، شعرتُ بصدمة تقرص معدتي، تيقنت حينها أنّ السيدة غالار لم تعد تحبني.

اليوم أنا معجبة ببعد نظر تلك المرأة الحذقة، الأمر الذي يدلّ أنني أتغير، كنت قد بدأت أجد آنساتنا حمقاوات جداً، فأتسلّى بطرح اسئلة محرجة عليهن، أعاندهن وأستقبل ملاحظاتهن دونما اكتراث، كانت أمي تعنفني قليلاً لكن أبي يضحك عندما أروي له تخبطاتي مع تلك الآنسات؛ وكانت تلك الضحكة تجعلني أتجنب أي وهم؛ من ناحية أخرى لم أكن أتصّور للحظة أنّ تصرفاتي الحمقاء يمكن أن تهين الله، عندما أبوح في الكنيسة، لم أكن أُحرج من تصرفاتي الصبيانيّة، أتلقى القربان عدة مرات في الأسبوع، وكان الخوري دومينيك يشجعني لأسلك دروب التأمّل الروحي، لم تكن لحياتي المدنسة أية علاقة مع تلك التجربة المقدّسة، الأخطاء التي كنت أتهم بها نفسي تتعلق بحالاتي الروحية بشكل خاصّ، خفّت حماستي ونسيت لوقت طويل الوجود الإلهي، أصلّي وأنا شاردة، وأفكر بنفسي بكثير من المجاملة، أنهيت للتو حديثي عن تلك الهفوات عندما سمعت عبر الجدار صوت الخوري دومينيك:

- هل هذا كلّ شيء؟

بقيت صامتة.

- قال الصوت: قيل لي إنّ صغيرتي سيلفي قد تغيرت عن ذي قبل، يبدو أنها أصبحت غير منظمة، غير مطيعة، ووقحة.

بان الحرج على وجنتي ولم أعد أستطيع أن أتفوّه بكلمة.

- قال الصوت: اعتباراً من اليوم عليك أن تنتبهي لتلك الاشياء، سوف نتحدث عنها سوياً.

منحني الخوري دومينيك الغفران، ثم خرجتُ من مكان الاعتراف ورأسي يغلي؛ تركتُ الكنيسة من دون أن أقوم بتعميد نفسي، كنت مضطربة جداً أكثر من ذلك اليوم الذي كنت فيه في المترو عندما فتح أحد الرجال سترته كي يريني شيئاً ورديّ اللون، وخلال سنوات كنت قد جثوت أمام السيد دومينيك كما لو كنت أجثو أمام الله، لم يكن سوى رجل عجوز ثرثار يتحدَّث كثيراً مع الآنسات اللواتي كان يأخذ ثرثرتهن على محمل الجد، كنت أشعر بالخجل أنني فتحت له روحي، لقد خانني. ومنذ ذلك اليوم، كنت أهرب عندما ألمح ثوبه الأسود.

خلال نهاية السنة وفي السنة التي تلت، أخذت أبوح لخوارنة كنيسة سانت سيلبيس، وأقوم بتغييرهم غالباً، أواصل الصلاة والتأمل، لكن خلال العطلة، ظهر النور في داخلي، ما زلت أحب مدينة سادرناك، وكما في الماضي أتنزه فيها دائماً؛ لكن أشجار التوت والبندق تضجرني حالياً، رغبت

في أن أتذوق حليب الفربيون السام، أن أعض في هذه الفتحات المسمومة التي تحمل لون الرصاص الأحمر والتي كانت تحمل اسماً غامضاً كخاتم سليمان، كنت أقوم بأشياء عديدة ممنوعة، آكل التفاح بين الوجبات، أتناول خفيةً روايات ألكسندر ديماس من على الرفوف العليا في المكتبة؛ كانت لدي محادثات هامة حول سرّ الولادات مع ابنة أحد المزارعين؛ في الليل، في سريري، كنت أروي لنفسي قصصاً غريبةً تضعني في حالات غريبة، ذات مساء، كنت ممددة في مرج رطب قبالة القمر، قلت لنفسي: "إنها خطايا!"، على الرغم من ذلك كنت مصممة بحزم أن أكمل الأكل والقراءة والكلام و الحلم وفقاً لما تمليه علي رغباتي. قلت لنفسي " أنا لا أؤمن بالله! ". كيف نؤمن بالله ونحن نختار عن عمدٍ مخالفته؟ بقيت للحظة مذهولة بتلك الحقيقة: لم أكن مؤمنة بالله.

لم يكن أبي أو حتى الكتّاب الذين كنتُ معجبة بهم يؤمنون بالله؛ من دون شك لا يمكن شرح العالم من دون الله، لكنّ الله لم يكن يشرح الشيء الكثير، على كلّ حال لم نكن نفهم شيئاً من ذلك، رحتُ أتعود بسهولة على حالة جديدة، مع ذلك، حين كنتُ في باريس كان الرعب يتملكني، لا يمكننا أن نمنع أنفسنا من التوقف عن التفكير بما يجول في خاطرنا، مع ذلك، كان أبي يتحدث في الماضي عن إعدام المتخاذلين، وقبل ذلك بعام تمّ طردُ تلميذةٍ كبيرة من الثانوية لأنها، كما كان يهمس خفية، قد فقدت إيمانها،

كان عليّ أن أخفي بعناية فقدان ثقتي؛ وفي الليل أستيقظ والعرق يتصبب مني من فكرة أن أندريه يمكنها أن تشكّ بذلك.

لحسن الحظ لم نكن نتكلم أبداً عن الجنس أو عن الدين، كان هناك الكثير من المشاكل التي بدأت تشغلنا، كنا ندرس الثورة الفرنسية؛ ومعجبات بشخصيات كامي ديمولان، مدام رولاند وحتى دانتون، نتحدث على مدّ الأفق عن العدل والمساواة والملكية، وحول هذه المواضيع لم يكن يهمنا رأي تلك الآنسات، آراء أهلنا متوقفة وثابتة لم تعد تقنعنا، كان أبي يقرأ بسهولة كتاب (*الحركة الفرنسية*). السيد غالار أكثر ديمقراطية، كان في شبابه مهتماً بقراءة مارك سانييه؛ لكنه لم يعد شاباً ويشرح لأندريه أنّ كلّ حركة اجتماعية تؤدي بالضرورة إلى تحجيم وإلغاء القيم الروحية، لم يكن يقنعنا، لكن بعضاً من حججه كانت تقلقنا، حاولنا مناقشة صديقات مالو، وهنّ فتيات شابات كبيرات يمكن أن يكون لديهنّ مرفة أكثر منّا عن ذلك، لكنّهن يعتقدنَ أنّ السيد غالار وهذه المسائل لا تهمّهن كثيراً، يفضلنَ الحديث عن الموسيقا والرسم والأدب بشكل غبي علاوة على ذلك.

كانت تطلب منا مالو غالباً، عندما تستقبل ضيوفها، أن نأتي ونقدم الشاي، لكنّها تشعر أننا لم نكن نقدّر تماماً ضيوفها، وبنوع من العقوبة عن ذلك، تحاول أن تُظهر فوقية ما على أندريه، وفي أحد الأيام ما بعد الظهر،

بدأت إيزابيل باريير التي كانت عاشقة بمثالية كبيرة لأستاذ البيانو، وهو رجل متزوج وأب لثلاث أطفال، بدأت المحادثة حول روايات الحب، وكلّ واحد بدوره أشار إلى اهتماماته؛ مالو، ابنة العم غيت والأخوات غوسلان.

- سألت إيزابيل: وأنتِ يا أندريه؟

قالت أندريه بهيئة جادة: إنّ روايات الحب تضجرني.

- قالت مالو: هيا يا أندريه! كلّ الناس يعرفون عن ظهر قلب أنك تعرفين رواية تريستان وإيزو.

أضافت أندريه أنّها لم تكن تحب تلك القصة في حين إنّ إيزابيل كانت تحبّها، وقد صرّحت وهي حالمة أنّها تجد أنّ ملحمة الحب الأفلاطوني تلك كانت مثيرة في ذلك العصر، ثم انفجرت أندريه بالضحك، قالت:

- حبٌ أفلاطوني! حبُ تريستان وإيزو! لا، لا علاقة له بالحب الأفلاطوني.

كان هناك صمتٌ مزعجٌ وقالت غيت بصوت أجشّ:

- لا يجب على الفتيات الصغيرات أن يتحدثن بأشياء لا يفهمنها.

ضحكت أندريه من جديد من دون أن تجيب وكنتُ أنظر إليها بقلق، ماذا تريد أن تقول بالضبط؟ لم أكن أتصور إلّا حبّاً واحداً، هو الحب الذي أكنّه لها.

- قالت أندريه عندما دخلنا غرفتها مرة أخرى: إيزابيل التعيسة! يجب عليها أن تنسى تريستان، إنّها مخطوبة لأصلع فظيع، ثمّ ضحكت ساخرةً:

- آمل أن تؤمن بالحب من أول نظرة.

-ماذا يعني هذا؟

-أكّدت عمتي لويز وأمّ غيت أنّه في اللحظة التي يلفظ فيها الخاطبون كلمة "نعم" المقدّسة في الخطبة يصيبهم الحبُ من أول نظرة الواحد للآخر، هل تفهمي؟ وهذه النظرية تلائم الأمهات، فهن لسن بحاجة أن يبدين اهتماماً بمشاعر بناتهن، لأن الله سيتدبر أمرهنَ.

- قلتُ: لا أحد يستطيع أن يعتقد ذلك كأنه حقيقة.

- قالت اندرية: غيت تعتقد بذلك، ثمّ صمتت.

- وأضافت: لن تذهب أمّي إلى هذا الحدّ بالطبع، لكنها تقول عندما نتزوج فإننا محاطات بالعناية.

ألقتْ نظرة على صورة أمها ثم قالت بصوت غير واثقٍ:

- كانت أمي سعيدة جداً مع أبي؛ لو أنّ جدتي لم ترغمها على ذلك الزواج، لما كانت تزوجت منه، لقد رفضته مرتين.

نظرتُ إلى صورة السيدة غالار، كان من الغريب أن أعتقد أنّها تمتلك قلب فتاة صغيرة.

-رفضتهُ؟!

- أضافت أندريه من دون قناعة: نعم، كان يبدو لها أبي زاهداً جداً في حين إنّه يحبّها ولم تسقط عزيمته، وخلال خطوبتهما بدأت تحبه هي أيضاً.

خلال لحظة قمنا بالتأمل في صمت مطبق، ثم قلتُ:

-ليس من المفرح أن نعيش من الصباح إلى المساء مع شخص لا نحبّه.

قالت أندريه: لا بدّ أن يكون ذلك كريهاً.

ثمّ ارتعدت كما لو أنّها لمحت زهرة الأوركيد؛ وتوقّف شعر ذراعيها وقالت:

- يعلموننا في دروس الدين أن نحترم أجسادنا، إذاً نحن حين نبيع أنفسنا في الزواج يعادل السوء الذي يقابل بيعه خارج الزواج، قلتُ: لسنا مجبرات على الزواج.

قالت أندريه: سوف أتزوج، لكن ليس قبل بلوغي سن الاثنين والعشرين عاماً.

ثمّ وضعت فجأة على الطاولة كتاب النصوص اللاتينية وقالت:

-ما رأيك أن ندرس؟

جلستُ بجانبها واستغرقنا بترجمة معركة *تراسيمين*، لم نعد نقدّم الشاي لصديقات مالو، لكي نجيب عن الأسئلة التي كانت تشغلنا، كان علينا أن نعتمد على أنفسنا فقط. لم نتحدث على الإطلاق في الماضي مثلما تحدثنا في تلك السنة، وعلى الرغم من هذا السّرّ الذي لن أشاركه معها، لم تكن صداقتنا أبداً أقوى مما هي عليه.

سُمح لنا أن نذهب سوية إلى مسرح الأوديون لكي نشاهد العروض الكلاسيكية، اكتشفنا الأدب الرومانسي؛ كنتُ أعجب بِ **هيغو** بينما كانت أندريه تفضّل **موسيه**، وكنا نعجب سوية بِ **ألفريد دو فيني**، وبدأنا نخطط لمشاريعنا المستقبلية، وقد اتفقتُ مع عائلتي أنّه بعد دراسة الثانوية سوف أكمل دراستي العليا؛ كانت أندريه تأمل أن يسمح لها أهلها بمتابعة دروسها في السوربون، وفي نهاية الفصل، كانت أكبر لحظات السعادة في طفولتي: دعتني السيدة غالار كي أمضي أسبوعين في بيتاري وقد وافقت أمي، كنتُ أعتمد على أندريه كي تنتظرني في المحطة؛ لكنني فوجئت عندما نزلتُ من

القطار برؤية السيدة غالار ، كانت تلبس ثوباً أسود وأبيض وتضع قبعة سوداء كبيرة مطرزة بزهرة المارغوريت، ووشاحاً أبيض حول رقبتها، قرّبتْ شفاهها من جبهتي دون أن تلمسها تقريباً كي تقبلني..

-كانت رحلتك جيدة يا صغيرتي سيلفي؟

-قلت لها: جيدة جداً سيدتي. وأضفت: لكني خائفة من أن أكون مزعجة.

كنتُ أحس دائماً أني مذنبة بشكل غامض بحضور السيدة غالار؛ يداي متّسختان، ومن دون شك وجهي؛ لكن لم تكن تهتم لذلك؛ تبدو شاردة الذهن، وجهت للعامل ابتسامة مصطنعة ثم اتجهت نحو عربة انكليزية يجرها حصانٌ أسمر محمر اللون؛ وفكّت زمام العربة المشدود حول وتدٍ وصعدت بحرية في العربة.

-قالت: اصعدي.

جلستُ بالقرب منها، راحت تحرك الحبال كأمواج، كانت تمسكها بيديها اللتان تلبسان قفازات.

-كنتُ أريد أن أكلمك قبل أن تقابلي أندريه.

قالت من دون أن تنظر إلي، تجمدتُ في مكاني، ما هي التوصيات التي ستمليها عليّ؟ هل خمّنتْ أنني لم أعد أؤمن بالله؟ لماذا دعتني إذاً؟

-قالت لي: أندريه لديها مشاكل ويجب عليك مساعدتي.

كررتُ بحماقة: أندريه لديها مشاكل؟

كنتُ منزعجة من أن تحدثني السيدة غالار فجأة كأنني شخص كبير، هناك شيء غامض ويدعو للريبة، شدّتْ حبال العربة وأصدرت صوت طقطقة من لسانها لتوجه الحصان الذي مضى بخطوات بطيئة.

-ألم تحدثك أندريه أبداً عن صديقها الحميمي برنار؟

-قلت: لا.

سلكت العربةُ درباً مغبرّة على جانبيها أشجار الأكاسيا المزيفة، صمتت السيدة غالار. وقالت أخيراً:

- والد برنار يملك أرضاً لها حدود مع أرض أمي، إنّه ينحدر من تلك العائلات من منطقة الباسك الذين جنوا ثروة في الأرجنتين، وهناك يمضي أغلب أوقاته، وكذلك زوجته وأطفاله، لكن برنار كان ضعيفاً هشاً، لم يكن يتحمل الجور بشكل قوي، وقد قضى طفولتها كلها هنا، مع عمّة عجوز وأجراؤها.

أدارت السيدة غالار رأسها نحوي.

-قالت لي بنبرة اعتذار جعلتني اضطرب: تعرفين أن أندريه قضت سنة في مدينة بيتاري بعد حادثها وهي ممددة على لوح خشبي، كان برنار يأتي كلّ يوم ليلعب معها؛ كانت وحيدة تتألم وتشعر بالضجر، وفي ذلك العمر لم يكن هذا مهماً.

قلتُ لها: لم تكلمني أندريه عن الموضوع.

كان حلقي مختنقاً، وكنتُ أودّ أن أقفز من العربة وأهرب كما هربتُ ذات يوم من البوح ومن الخوري دومينيك.

-لقد كانا يتقابلان كلّ صيف ويمتطيان صهوة الحصان معاً، لم يكونا سوى أطفالٍ أما الآن فقد كبرا.

بحثت السيدة غالار عن نظراتي؛ وكانت تخفي شيئاً من الأسى في عيونها.

-أترين يا سيلفي؟ من المستحيل أن يتزوج برنار من أندريه، إنّ والد برنار يعارض ذلك مثلي تماماً، لذلك كان عليَّ منع أندريه من رؤيته.

تلعثمتُ صدفة.

-أفهم ذلك.

- قالت السيدة غالار: لقد استاءتْ من ذلك.

ومن جديد ألقت عليّ نظرة حذر وريبة لا تخلو من الرجاء:

-أعتمدُ كثيراً عليكِ.

-ماذا أستطيع أن أفعل؟

خرجت هاتان الكلمتان من فمي، لكنهما لم تكونا تعنيان أيّ شيء، أكن أفهم الكلمات التي تخترق أذنيّ؛ رأسي مليء بضجة الليل.

- أضافت السيدة غالار: شتتي انتباهها، تحدثي معها عن الأشياء التي تثير اهتمامها، بعد ذلك، إن سنحت لك الفرصة أرشديها وعقّليها، أخشى أن تمرض، في هذه الأيام لا أستطيع أن أقول لها أيّ شيء.

ومن الواضح أنّها كانت قلقة وتعيسة، لكنّي لم أكن متأثرة من ذلك، بل على العكس، في هذه اللحظة كنتُ أكرهها، وقد تمتمتُ بطرف شفتيّ:

- سأحاول.

أسرع الحصان في مشيته في جادّةٍ على جوانبها أشجار النخيل الأمريكي، وتوقّف أمام بناء كبيرٍ تعلو جدرانه أشجار الكرمة لم تلمس بعد، وقد رأيتُ صورة هذه الكرمة على مدفأة أندريه، بتُّ أعرف الآن لماذا كانت

تحبّ مدينة بيتاري والنزهات على الحصان؛ وبتُّ أعرف بماذا كانت تفكر عندما كانت تشرد بنظراتها إلى البعيد.

-صباح الخير.

نزلت أندريه أدراج مدخل البيت وهي تضحك؛ وكانت تلبس ثوباً أبيض وتضع قلادةً خضراء، شعرها المقصوص يلمع كما لو أنها ترتدي خوذة، يبدو عليها أنها فتاة حقيقية، فجأة قلتُ لنفسي: إنها تبدو جميلة جداً.. كانت فكرة غير لائقة، فنحن لم نكن نولي أيّ اهتمام للجمال..

- قالت السيدة غالار: أعتقد أنّ سيلفي ترغب بالاعتناء بهندامها، يمكن لكنّ بعدها أن تنزلن لتناول العشاء.

تبعتُ أندريه عبر غرفة الملابس التي كانت تفوح منها رائحة الكريمة بطعم الكراميل، والشمع الطازج ورائحة السقيفة العتيقة؛ كان أحدهم يعزف على البيانو، صعدنا الدرج، دفعت أندريه باباً، قالت:

-لقد جهزتْ أمي غرفتي لأجلكِ.

كان هناك سريرٌ كبير مع قبة وعواميد حلزونية، وفي الجهة الأخرى من الغرفة أريكة صغيرة، كم كانت تغمرني السعادة لفكرة أنني قبيل ساعة سأتقاسم الغرفة مع أندريه، لكني دخلتُها وقلبي منقبض: استفادت السيدة

غالار مني، هل من أجل أن تسامح نفسها؟ أو من أجل أن أسلّي أندريه؟ ومن أجل أن أراقبها؟ ممّا كانت تخاف بالضبط؟

اقتربت أندريه من النافذة وقالت بلا اكتراث:

-عندما يكون الطقس واضحاً يمكننا رؤية جبال البيرينيه.

حلّ المساء ولم يكن الطقس واضحاً.

قمتُ بتجهيز نفسي وأعدتُ ترتيب شعري وأنا أروي من دون قناعة رحلتي: استقللتُ القطار وحدي للمرة الأولى، كانت مغامرة، لكن لم يعد لدي ما أقوله عنها.

- قالت أندريه: عليكِ أن تقصّي شعركِ.

قلتُ لها: أمي لا ترغب بذلك.

كانت أمي ترى أنّ الشعر المقصوص يوحي بهيئة سيئة، وكنتُ أشبك شعري على رقبتي بدبوس على شكل جديلة كئيبة.

- قالت أندريه: لننزل سوف أريك المكتبة.

استمرّ عزف البيانو، كان هناك أطفال يغنون؛ البيت مليءٌ بالضجة، ضجّة أطباق الغسيل المتحركة، وضجيج الخطوات، دخلتُ إلى المكتبة، هناك المجموعة الكاملة لمجلة *العالمين* منذ العدد الأول، وأعمال لويس

فيبو، وكتب مونتالومبير ، وخطب ومواعظ لاكوردير، وكتابات الكونت مون، وكلّ أعمال جوزيف دوميستر؛ وعلى المنضدات الصغيرة هناك صور الرجال المفضّلين ولشيوخ ذوي لحيات؛ كانوا أسلاف أندريه، وكانوا جميعاً كاثوليكيين مناضلين.

ومع أنهم قد ماتوا لكن كنا نشعر أنهم هنا في بيتهم، وبين كلّ هؤلاء الرجال المتزمتين، كانت أندريه تبدو أنها لا مكان لها بينهم، فهي شابّة جدّاً، هزيلة جداً، وبشكل خاصّ شديدة الحيوية..

رنّ جرسٌ ما واتّجهنا إلى غرفة الطعام، كم كانوا كثيري العدد! كنتُ أعرفهم جميعاً ماعدا الجدّة، وكانت تخفي تحت العصابات على رأسها وجهاً كلاسيكياً للجدّة، لم تكن لديّ أية فكرة عنها، الأخ الكبير يلبس جبّة الكاهن، كان قد بدأ للتوّ الدروس الدينية، تابع مع مالو والسيد غالار نقاشاً كان يبدو حادّاً عن اقتراع النساء؛ نعم لقد كان أمراً مخجلاً أن تحصل ربّة الأسرة على حقوق أقلّ من عامل ثمل، لكنّ السيد غالار اعترض قائلاً: إنّ من بين العمال، تبدو النساء أيضاً أكثر هياجاً من الرجال؛ وفي نهاية الأمر، إذا تمّ التصديق على القانون، فسوف يخدم المرأة أعداء الكنيسة.

كانت أندريه صامتة، في طرف الطاولة كانت التوأمان تتقاذفان قطع الخبز؛ وقد منعتهم السيدة غالار من فعل ذلك وهي تبتسم، وللمرة الأولى

قلتُ في نفسي بوضوح: إنّ هذه الابتسامة كانت تخفي فخّاً، كنتُ غالباً أحسد أندريه على استقلالها؛ وفجأة بدت لي أقلّ حرية مني، كان هناك ذلك الماضي خلفها؛ وحولها ذلك البيت الكبير والعائلة الواسعة التي تبدو كالسجن الموصد المخارج بقوّة.

- قالت مالو دون ارتياح: ما رأيكِ بنا؟

-أنا! لا شيء! لماذا؟

-لقد جلتِ بنظركِ إلى الطاولة بكاملها، معنى ذلك أنّك تفكرين بشيء ما.

- قلتُ لها: إنكم كثيري العدد، هذا كلّ شيء.

قلتُ في نفسي: إنه عليّ أن أتعلّم مراقبة وجهي.

عندما تركنا الطاولة قالت السيدة غالار لأندريه:

-عليك أن تنزّهي سيلفي في الحديقة.

-نعم.

- خذوا معاطفكم.

نزعتْ أندريه من غرفة الملابس معطفين طويلين، كانت العصفورتان نائمتان، خرجنا من الباب الخلفي الذي يفضي إلى الأبنية الملحقة، وبـ

غرفة الأدوات ومستودع الحطب هناك كلبٌ يجرّ سلسلته وهو يتأوّه، اقتربت أندريه من وجار الكلب وقالت:

-تعالي يا ميرزا التعيسة، سوف أنزّهك.

فكّت أندريه وثاق الحيوان الذي وثب عليها بفرح ومضى يركض أمامنا، سألتني أندريه:

-هل تعتقدين أن للحيوانات أرواح؟

-لا أعرف.

أضافت أندريه: إن لم يكن لديها روح سيكون الأمر ظالماً، إنّها تعيسة كالناس وهي لا تفهم لماذا، الأمر سيء للغاية عندما لا نفهم السبب.

لم أجب بشيء، لقد كنتُ أنتظر تلك السهرة منذ زمن بعيد! قلتُ في نفسي: أخيراً سأكون وسط حياة أندريه، لم تبدُ لي أبداً بعيدة جداً، لم تعد أندريه ذاتها منذ أن عرفتُ سرّها، تبعنا بصمتٍ بعض الدروب غير المجهزة للسير عليها، حيث تنمو نباتات الموف والسانتوريس، كانت الحديقة مليئة بالأشجار والزهور الجميلة.

- قالت أندريه وهي تشير إلى مقعد عند طرف شجرة الأرز الزرقاء: لنجلس هنا، وأخرجت من كيسها علبة دخان من نوع غلواز وقالت:

-هل تأخذين واحدة؟

-لا، منذ متى تدخّنين؟

-أمي تمنعني؛ لكن عندما نبدأ بعصيان الأوامر....

أشعلت سيجارة وبعثت بالدخان بين عينيها، تمالكتُ شجاعتي: ماذا يحصل يا أندريه؟ احكي لي.

-قالت أندريه: أظن أنّ أمي قد أخبرتكِ، لقد أصرّت على الذهاب وملاقاتكِ.

-لقد حدّثتني عن صديقك برنار، لم تخبريني عنه شيئاً أبداً.

- قالت أندريه: لم أستطع الحديث عن برنار.

فتحت يدها اليسرى وحرّكتها كي تفكّ التشنج.

-الآن أصبحت قصة معروفة.

قلتُ لها بحيوية: لا تتحدّثي عنها إن كنتِ لا ترغبين.

نظرت إليّ أندريه: أنتِ مختلفة، أريد أن أحدثكِ عنها.

نفثت بقوة بعض الدخان: ماذا قالت لك أمي؟

-قالت إنكِ أصبحتِ صديقة برنار، وأنّها منعتكِ من رؤيته.

قالت أندريه: لقد منعتني من رؤيته؛ ألقت بسيجارتها وسحقتها بكعب قدمها.

-في مساء عودتي، تنزّهتُ مع برنار بعد العشاء، وعدتُ متأخرة، كانت أمي تنتظرني، رأيتُ على الفور أنّ وجهها بدا غريباً، طرحتْ عليّ أسئلة كثيرة.

هزّت أندريه أكتافها وقالت بصوت غاضب:

- سألتني إذا قبّلنا بعضنا البعض! بالطبع لقد فعلنا ذلك، فنحنُ عاشقان.

وأخفضتُ رأسي، كانت أندريه تعيسة، ولم أكن أحتمل تلك الفكرة؛ لكن تعاستها تبدو لي غريبة، الحب الذي نتعانق به لم يكن حقيقياً بالنسبة لي.

- قالت أندريه: لقد قالت أمي أشياء فظيعة وقد شدّت معطفها السميك حولها.

- لكن لماذا؟

- قالت أندريه بهيئة المحتشم: أهله أكثر غنىً منا ، ولم يكونوا من وسطنا أبداً، يبدو أنّه هناك في مدينة ريو كان لديهم حياة غريبة فاسدة؛ وأضافت وهي تتمتم: والدته يهودية.

نظرت إلى الكلبة ميرزا وهي ثابتة وسط العشب الأخضر، أذناها متجهتان نحو النجوم، وأنا أيضاً مثلها لم أكن قادرة على ترجمة مشاعري بالكلمات، سألتُها وقلتُ: وعندئذ؟

-ذهبتْ أمي وتحدّثت مع والد برنار وقد كان يوافقها الرأي، فأنا لستُ مناسبة لهم، قرر أن يصحب برنار ليقضي عطلته في مدينة بياريتس ثم سيرحلان إلى الأرجنتين، برنار في حالة جيدة الآن.

-هل رحل الآن؟

-نعم؛ لقد منعتني أمي أن أودّعه لكني خالفتها، كم من الصعب أن نجعل شخصاً نحبّه يتألم.

كان صوتها يرتجف.

- لقد بكى، كم بكى!

- سألتها: كم عمره؟ كيف يبدو؟

- قالت أندريه: عمره خمسة عشر عاماً مثلي، لكنّه لا يعرف شيئاً عن الحياة، لم يكن يكترث به أحدٌ أبداً، لم يكن لديه سواي.

بحثت في حقيبتها.

-عندي صورة صغيرة له.

نظرتُ إلى الفتى الصغير المجهول الذي كان يحبّ أندريه والذي قبّلته والذي بكى كثيراً، عيناه كبيرتان واضحتان، وجفونه منتفخة، شعره غامق مقصوص قصة الكراكلا، يشبه القديس تارزيسيوس الشهيد.

قالت أندريه: إنّ عيناه وخدّاه يشبهان خدود الفتى الصغير؛ أترين كم كان فمه حزيناً، يبدو كأنّه يعتذر لوجوده على الأرض.

أسندتْ رأسها إلى المقعد ونظرتْ إلى السماء.

-أحياناً أقول في نفسي أتمنى لو كان ميتاً؛ على الأقل سأتألم وحدي.

ومن جديد ارتجفت وتشنجت يد أندريه.

- لا أستطيع تحمل فكرة أنه يبكي في هذه اللحظة.

قلتُ لها: سوف تتقابلان من جديد، بما أنكما تحبّان بعضكما سوف تتقابلان، ويوماً ما، ستصبحان راشدين.

- قالت أندريه بيأس: بعد ستّ سنوات؛ إنها مدة طويلة، في عمرنا إنّها مدة طويلة، أعرف جيداً أني لن أراه مجدداً.

- لن أراه أبداً، كانت هذه المرة الأولى التي تنزل عليّ هذه الكلمة بكل ثقلها وتهوي على قلبي؛ كررتُها في نفسي، تحت السماء الواسعة ورغبتُ بالصراخ.

قالت أندريه: عندما عدتُ بعد وداعه، صعدتُ إلى سقف المنزل، كنتُ أريد أن أقفز.

-كنتِ تريدين أن تنتحري؟

-بقيتُ ساعتين في الأعلى؛ ترددتُ ساعتين، قلتُ في نفسي أنّ الأمر سيّان إن كنتُ مدنّسة ملعونة، إن لم يكن الله طيباً فلا يهمني أن أذهب إلى سمائه.

هزّت أندريه أكتافها:

-آه! مع ذلك خفتُ، شعرتُ بالخوف، ليس من الموت على العكس، أرغب كثيراً أن أكون ميتة، لكني خفتُ من جهنم، إن ذهبتُ إلى جهنم فسيكون ذلك أبدياً ولن أرى برنار من جديد.

قلتُ لها: سوف ترينه من جديد في هذا العالم.

هزّت أندريه رأسها وقالت: لقد انتهى الأمر.

نهضتْ فجأة وقالت: لنعدْ، أشعر بالبرد.

اجتزنا الحديقة بصمت، ربطت أندريه الكلبة ميرزا، وصعدنا إلى غرفتنا، نمتُ في السرير ذي القبة، في حين إنّها نامت على الأريكة، وأطفأت مصباحها وقالت لي:

لم أعترف لأمي أني التقيت برنارد مجدداً، لا أريد أن أسمع الأشياء التي كانت ستقولها لي، ترددتُ، لم أكن أحب مدام غالارد، لكني مدينة بقول الحقيقة لأندريه:

- إنها قلقة عليك كثيراً.

- نعم، أعتقد أنها قلقة، قالت أندريه.

لم تأت أندريه على ذكر برنارد في الأيام التالية، ولم أجرؤ أن أبادر بالحديث عنه، في الصباح، كانت تعزف على الكمان لفترة طويلة، وكانت مقطوعات حزينة دائماً تقريباً، ثم كنا نخرج تحت الشمس، كان هذا البلد أكثر جفافاً من بلدي، تعودت على رائحة شجرة التين الفواحة في الغابة على طول الممرات الترابية، عرفت طعم حبات الصنوبر، وامتصصت الدموع الراتنجية المجمدة على جذوع أشجار الصنوبر، عند عودتنا من المشوار، دخلتْ أندريه إلى الإسطبل، داعبتْ حصانها الصغير الكستنائي، لكنها لم تمتط صهوته بعد ذلك نهائياً.

كانت فترات بعد الظهر من أيامنا أكثر صخباً، كانت مدام غالارد قد تعهدت بتزويج مالو، ولتمويه زيارات الأولاد غير المعروفين إلى حدّ ما، كانت تفتح المنزل على مصراعيه للشباب "اللائقين تماماً" في المحيط، كنا نلعب الكروكيه والتنس ونرقص على العشب ونتحدث عن المطر والطقس الجيد أثناء تناول الكعك، في ذلك اليوم نزلت مالو من غرفتها، مرتدية

فستاناً باللون البني الفاتح، مع شعر يبدو رطباً وملفوفا بفعل حرارة المكواة الصغيرة، دفعتني أندريه قائلة:

- إنها ترتدي زي المقابلة مع العرسان المحتملين، قضت مالو فترة ما بعد الظهر بجوار المدعو سان سيريان المشاغب للغاية والذي لم يكن يلعب التنس، ولم يكن

يرقص، ولم يكن يتكلم، من وقت لآخر كان يلتقط كراتنا، بعد مغادرته، حبست مدام غالارد نفسها في المكتبة مع ابنتها الكبرى؛ كانت النافذة مفتوحة وسمعنا صوت مالو:

- "لا يا أمي، ليس هذا: إنه ممل جداً!

- مسكينة مالو! قالت أندريه، كلّ الرجال الذين تم تقديمهم لها أغبياء وقبيحون للغاية! جلست على الأرجوحة، كان هناك مكان لممارسة التمارين الرياضية في الهواء الطلق بجوار مقر الجمعية الخيرية؛ كانت أندريه تمارس هناك غالباً تمارين العارضة الثابتة أو تلعب الأرجوحة، كانت قوية جداً في ذلك، أمسكت بالحبال قائلة:

- ادفعيني.

دفعتها، نهضت على قدميها عندما اكتسبت الأرجوحة القليل من الزخم وقوة الدفع، ووجهت ضربة قوية برجلها؛ وسرعان ما طارت الأرجوحة إلى قمم الأشجار.

- ليس بهذا العلو! صرختُ، لم تجب، طارت، ونزلت ثم حلقت أعلى، كانت الطفلتان التوأم، اللتان كانتا تلعبان بنشارة خشب مرجل النار بجانب بيت الكلب، قد رفعتا رأسيهما وقد بدا عليهما الاهتمام؛ من بعيد، كان يتناهى إلى أسماعنا صوت ضرب كرات التنس الخافت، لامست أندريه أوراق أشجار القيقب، وبدأت أخاف، كنت أسمع أنين عوارض الأرجوحة الفولاذية.

- أندريه!

كان البيت كله هادئاً، من خلال النافذة، تناهى صوت غير مفهوم من المطبخ؛ وكانت أزهار قدم القبرة ونقود البابا الملتصقة بالجدار بالكاد تهتز، كنت خائفة، لم أجرؤ على إمساك اللوح الخشبي أو التوسل بصوت عالٍ؛ لكني قلت لنفسي إنّ الأرجوحة ستلتف أو أن أندريه ستصاب بالدوار، كانت تفلت الحبال، بمجرد مشاهدتها وهي تتأرجح من و إلى السماء مثل بندول مجنون، كنت أشعر بالغثيان، لماذا كانت تتأرجح لفترة طويلة؟ عندما مرت بالقرب مني، منتصبة في ثوبها الأبيض، كان نظرها ثابتاً، وشفتاها مشدودتان، ربما أصابها للتو مسٌّ من الجنون، لم تستطع التوقف، رنّ جرس العشاء وأخذت الكلبة ميرزا بالنباح، واصلت أندريه الطيران في الأشجار. قلت لنفسي، سوف تقتل نفسها.

- أندريه!

كان شخص آخر هو من أطلق تلك الصرخة، كانت مدام غالارد، اقتربت ووجهها مسودٌّ من الغضب:

- انزلي على الفور! هذا أمر، انزلي!

رفّت أندريه رموش عينيها ونظرت إلى الأرض، كانت منحنية على الأرض، جلست، وفرملت بكلتي قدميها بعنف لدرجة أنها امتدت بكامل قامتها على العشب.

- هل آذيتِ نفسك؟

- لا. ضحكت، وانتهى ضحكها بفواقٍ أصابها، وبقيت مستلقية على الأرض، وعيناها مغمضتان.

- من الواضح أنك جننتِ! نصف ساعة في هذا التأرجح! ما هو عمرك؟ قالت مدام غالارد بصوت خشن، فتحت أندريه عينيها.

- السماء تدور.

- عليكِ تحضير كعكة لتتناولها بعد ظهر الغد.

- سأفعل ذلك بعد العشاء، قالت أندريه، وضعتْ يدها على كتفي:

- أنا أترنح.

ابتعدت السيدة غالار، التقطت ذراعي التوأم واصطبتهما إلى المنزل، رفعت أندريه رأسها نحو قمم الأشجار وقالت:

-شعور جيد أن نكون هناك في الأعلى.

قلتُ: لقد جعلتني أشعر بالخوف.

-الأرجوحة قوية، لم يحصل أي حادث.

لا، لم تكن تفكر أن تقتل نفسها فقد انتهى الأمر، لكن عندما كنتُ أتذكر عينيها الثابتتين وشفاهها المقبوضة كنتُ أشعر بالخوف.

بعد العشاء، عندما أصبح المطبخ فارغاً، نزلت أندريه إليه وكنت أرافقها؛ كان غرفة كبيرة تشغل نصف نصف القبو؛ خلال النهار، كنا نرى عبر النافذة أرجلاً بشرية، ووالدجاج البلدي، وكلاباً، وأقداماً تمرُّ؛ في هذه الساعة، لم يكن هناك شيءٌ يتحرك في الخارج، فقط الكلبة ميرزا في نهاية سلسلتها كانت تصدرُ صوتَ أنينٍ ضعيف.

النار تنفخ في الموقد ولم يكن هناك أصوات أخرى في حين كانت أندريه تكسر البيض وتركب عيار السكر والخميرة، تفحّصتُ الجدران وفتحتُ النوافذ الصغيرة، كانت أقدار النحاس تلمع، مجموعة من الطناجر، الأقدار الكبيرة، المغارف، الأحواض التي كانت تُغلى بها سابقاً أغطية الأجداد ذوي اللحى؛ وعلى الرفوف أعجبت بسلسلة الأطباق ذات الألوان الطفولية، ولم يكن هناك سوى القدور، قِدْر لغلي اللحم، وقدور الطبخ، والمواعين، والقصعات، وأطباق الحساء، والصحون، والأقداح المعدنية،

والمصافي، وسكاكين الفرم، والمطاحن، والقوالب وجرن الهاون! وكلها مصنوعة من الحديد المفحّم، والأراجيل، والصلصال، ومن الخزف، والألمنيوم والقصدير، يا لها من مجموعة متنوعة من الأطباق والطاسات والكؤوس، وكؤوس عالية الساق والأقداح، والأطباق، والصحون، وقوارير المرق، والأواني، والجرّات، وأباريق الخمر وأباريق الشرب!

- هل كان لكلّ نوع من الملاعق، والمغارف، والشوك، والسكاكين استخدامٌ معين؟ هل كان لدينا فعلاً هذا الكمّ من الاحتياجات المختلفة لتلبيتها؟ هل كان على هذا العالم السّرّي أنْ يظهرَ على سطح الأرض من خلال مهرجانات ضخمة ودقيقة التي _حسب معرفتي_ لم تحدث في أيّ مكان.

- سألتُ أندريه: هل يتمُّ استخدامُ كلّ شيء؟

- قالت: إلى حدٍّ ما، هناك الكثير من التقاليد.

وضعتْ في الفرن قالباً جاهزاً من الكيك:

قالت لي: ((لم ترَيْ شيئاً))، تعالي نقوم بجولة في القبو.

اجتزنا أولاً مكان إنتاج الألبان، كانت هناك أوعية وجفان مطلية بالبرنيق، ومخضّات لاستخراج الزبدة مصنوعة من الخشب المصقول،

وكتل من الزبدة والجبن الأبيض مع اللحم الناعم تحت نسيج من الموسلين الأبيض:

هذا الوضع غير الصحّيّ ورائحة الرضيع هذه دفعاني إلى الفرارن فضلتُ أقبية بيوت المونة المليئة بالزجاجات المغبرّة والبراميل الصغيرة الممتلئة بالكحول؛ لكن كثرة لحم الخنزير والنقانق وأكوام البصل والبطاطس أرهقتني.

فكرتُ وأنا أنظر إلى أندريه: ((لهذا السبب تحتاج لأن تطير بين الأشجار)).

- هل تحبين الكرز المحفوظ بالكحول؟

- لم أتذوقه قط.

على أحد الرفوف، كان هناك مئات الأوعية من المربيات، كلٌّ منها مغطى برقاقة كُتبَ عليها التاريخ واسم الثمرة، هناك أيضاً أوعية زجاجية (أكواز) من الفاكهة المحفوظة في شراب وفي الكحول، أخذت أندريه كوزاً من الكرز وحملته إلى المطبخ، وضعته على الطاولة، وملأت كوبين بمغرفة خشبية، ذاقت السائل الوردي مباشرة من المغرفة:

- قالت: الجدة كانت يدها ثقيلة، سوف نثمل بسهولة مع هذا!

بدأتُ بعقب فاكهة مشوهة، ذابلة قليلاً، مجعدة، لم يعد لها طعم الكرز لكن حرارة الكحول أعجبتني، سألتها:

- هل سبق لك أن شربتِ حتى الثمالة؟

أضاء وجه أندريه:

- مرة واحدة، مع برنار، شربنا زجاجة من الشارتروز، في البداية كان الأمر ممتعاً، كنا نشعر بالدوار بشكل أكثر بكثير مما لو كنت تنزلين من الأرجوحة؛ بعد ذلك أحسسنا بوجع في قلبنا.

كانت النار تطقطق، بدأنا نشم رائحة مخبز خفيفة، بما أنّ أندريه لفظت اسم برنار، تجرأتُ على سؤالها:

- هل أصبحتما أصدقاء بعد الحادث الذي تعرضتِ له؟ هل كان يأتي لرؤيتكِ كثيراً؟

- نعم، كنا نلعب لعبة الداما والدومينو ولعبة الورق (الطنج)، كان برنار يستشيط غضباً في ذاك الوقت؛ اتهمتُه ذات مرة بالغشّ فقام بركلي بالضبط على فخذي الأيمن، لم يفعل ذلك عن قصدٍ، أغمي عليّ من الألم، عندما استعدت وعيي، كان قد طلب النجدة، وجدتهم يقومون بتغيير الضمادات وكان يبكي عند طرف السرير.

نظرت أندريه بعيداً:

- لم أرَ طفلاً صغيراً يبكي قط؛ أخي وأبناء عمي عنيفون.

عندما تركونا وحدنا، تعانقنا...

ملأت أندريه كؤوسنا ثانية، كانت الرائحة تشتدّ؛ عرفنا أنّ الكعكة في الفرن، قد نضجت وأصبحت ذهبية، لم تعد الكلبة ميرزا تصدر ذاك الأنين، ربما نامت، كان الجميع نائمين.

- قالت أندريه: لقد بدأ يحبني.

أدارت رأسها نحوي:

- "لا يمكنني شرح ذلك لك، لقد أحدث هذا تغييراً كبيراً في حياتي! لطالما اعتقدتُ ألا أحد يستطيع أن يحبني.

قفزتُ وقلت:

- هل كنت تعتقدين ذلك؟

- نعم.

- قلت باستنكار: لكن لماذا؟

هزّت كتفيها:

- وجدت نفسي قبيحة جداً، وخرقاء جداً، وغير مهمَّة بشكل كبير، ومن ثمّ من الصحيح أنه لم يكن أحد يحفل بي.

- قلت لها: ماذا عن والدتكِ؟

- أوه! يجب على الأم أن تحب أطفالها، هذا لا يدخل بالحسبان، لقد كانت أمي تحبنا جميعاً، ونحن عائلة كبيرة!

كان هناك اشمئزازٌ في صوتها، هل كانت تغار من إخوتها وأخواتها؟ هل عانت من هذا البرودة التي شعرتُ بها عند مدام غالار؟ لم أكن أعتقد أبداً أنّ حبها لوالدتها يمكن أن يكون حباً غير ميمون، أراحت يديها على خشب المائدة اللامع.

لا يوجد في العالم سوى برنار من أحبني لنفسي، تماماً كما كنت، ولأنني كنت أنا أندريه، قالت بلهجة شرسة.

- قلت: وأنا؟

كانت الكلمات قد أفلتت مني، لقد استثارني الكثير من الإجحاف، حدّقت أندريه بي متفاجئة.

- أنتِ؟

- ألم أتمسك بكِ من أجلكِ أنتِ؟

- قالت أندريه بصوت متردّد: ((بالطبع)).

حرارة الكحول وسخطي جعلاني أكون جريئةً؛ كانت لديّ الرغبة في أن أخبر أندريه بهذه الأشياء التي تقال فقط في الكتب.

- قلت: أنتِ لم تعرفي ذلك أبداً، لكن منذ اليوم الذي قابلتكِ به، كنتِ كلّ شيء بالنسبة لي، كنتُ قد قررت أنه إذا متِّ، سأموت على الفور.

كنت أتحدث بصيغة الماضي، وكنت أحاول أن أتخذ نبرة غير رسمية، واصلت أندريه النظر إليّ في حيرة.

- كنتُ أعتقد أنّ كتبكِ ودراساتك هي فقط التي تهمك حقاً.

- قلت: ((كنتِ هناك أنتِ أولاً))، كنت سأتخلّى عن كلّ شيء حتى لا أفقدكِ،

التزمتْ الصمت وسألتُها:

- ألم تكوني تشكّين في ذلك؟

- عندما أعطيتني تلك الحقيبة، في عيد ميلادي، اعتقدت أنكِ تكنين فعلاً المودة لي.

- قلت بحزن: كانت المسألة أكبر من ذلك بكثير!

بدتْ متأثرة، لماذا لم أتمكن من جعلها تشعر بحبي؟ بدت لي مرموقة لدرجة أنني اعتقدت أنها سعيدة جداً، كنت أريد البكاء عليها وعلي.

- قالت أندريه: ((إنه لأمر مضحك)) ؛ لقد كنا كالخنصر والسبابة في اليد الواحدة لسنوات عديدة، وأدركت الآن أني أعرفكِ بشكلٍ سيء جداً! أنا أحكم على الناس بسرعة كبيرة جداً، قالت نادمةً.

لم أكن أريدها أن تتهم نفسها:

- قلت بسرعة: أنا أيضاً، لم أكن أعرفكِ جيداً، اعتقدت أنكِ فخورة بما كنت عليه، كنت أحسدكِ.

- قالت: أنا لست فخورة.

نهضت وسارت إلى الموقد:

قالت وهي تفتح الفرن: لقد نضجت الكعكة.

أطفأتْ النار وأعادتْ الكعكة إلى خزانة الطعام، صعدنا إلى الغرفة وأثناء خلع ملابسنا، سألتني:

- هل ستتناولين القربان صباح الغد.

- قلت: لا.

- إذاً، سنذهب إلى القداس الكبير معاً، وأنا أيضاً لم أعد أتناول القربان، وأضافت بلا مبالاة: أنا في حالة خطيئة، ما زلت لا أخبر أمي أنني كنت أعصيها.

وأسوأ ما في الأمر أنني لست نادمة على ذلك، انزلقتُ تحت الأغطية، بين طرفي الأعمدة الحلزونية.

-لم يكن بإمكانكِ تركُ برنار يذهب من دون رؤيته مرة أخرى.

- قالت أندريه: لم أكن أستطع ذلك! ربما كان سيظنني غير مبالية، بل ربما كان سيصبح أكثر يأساً، لم أكن أستطيع ذلك، كرّرت قولها.

قلتُ: ((حسناً، لقد فعلت شيئاً جيداً بعصيانك)).

- قال أندريه: أوه! في بعض الأحيان، مهما كان ما نفعله، فإنّ كلّ شيء يبدو سيئاً، ذهبتْ إلى الفراش لكنها تركتْ ضوء المصباح الأزرق مضاءً عند طرف السرير.

- قالت: إنها إحدى الأشياء التي لا أفهمها، لماذا لا يخبرنا الله بشكلٍ واضح ماذا يريد منّا؟

لم أجب، تحركت أندريه في سريرها، ورتبت وسادتها.

- أود أن أسألك سؤالاً.

- اسالي.

- هل ما زلتِ تؤمنين بالله؟

لم أتردّد، في هذه الليلة لم تكن الحقيقة تخيفني.

- قلت: لم أعدْ أؤمن به بعد الآن، لم أعدْ أؤمن به منذ عام.

قالت أندريه: ((كنت أشكُّ في ذلك)).

أسندتْ ظهرها إلى وسائدها:

- سيلفي! من غير الممكن ألّا توجد إلاّ هذه الحياة!

كررتُ قولي: ((لم أعدْ أؤمن)).

قالت أندريه: في بعض الأحيان يكون الإيمان صعباً، لماذا يريدنا الله أن نكون بائسين؟ أجابني أخي أنها مشكلة الشرّ التي حلّها آباء الكنيسة منذ فترة طويلة، هو يكرّر لي ما علموه في الدروس الدينية، إنّ هذا لا يرضيني.

- قلت: لا، إن كان اللهُ موجوداً، فلا يمكننا أن نفهم وجود الشرّ.

قالت أندريه: ((لكن ربما يتعيّن علينا أن نقبل ألاّ نفهم))؛ إنه من الكبرياء أن نريد أنْ نفهم كلّ شيء.

أطفأتْ ضوء المصباح وأضافتْ بصوت هامس:

-هناك بالتأكيد حياة أخرى، يجب أن تكون هناك حياة أخرى!

لم أكن متأكدة مما كان ينتظرني عندما استيقظت، لقد أصبتُ بخيبة أمل، كانت أندريه هي نفسها بالضبط، لم تتغير، تبادلنا التحية كما كنا نفعل دائماً، واستمرت خيبة أملي في الأيام التالية، بالطبع كنا متّحدتين لدرجة أننا لا نستطيع أن نصبح أكثر وحدة من ذلك؛ إنّ عدداً من الجمل لا يشكل عبئاً قياساً بستّ سنوات من الصداقة

لكن عندما تذكرت تلك الساعة التي أمضيتها في المطبخ، كنت حزينة لاعتقادي أنه لم يحدث شيء في الحقيقة.

ذات صباح كنا نجلس تحت شجرة تين وكنا نأكل التين، التين الكبير البنفسجي الذي يباع في باريس ببساطة كالخضروات، لكني كنت أحبّ هذه الثمار الصغيرة ذات اللون الأبيض الباهت، المملوءة بالمربى كثير الحبوب.

- قالت لي أندريه: لقد تحدثت مع أمي الليلة الماضية.

شعرت بألم في قلبي، كانت أندريه تبدو أقرب إليّ عندما تكون بعيدة عن والدتها.

- سألتني إذا كنت قد تناولت القربان يوم الأحد.

لقد ساءها كثيراً أني لم أتناول القربان يوم الأحد الماضي.

- هل عرفت السبب؟

- ليس بالضبط، لكني أخبرتها.

- آه! هل أخبرتِها؟

أسندت أندريه خدّها على شجرة التين:

- أمي المسكينة! إنها مغتمة للغاية في الوقت الحالي، بسبب مالو ثم بسببي أنا!

- هل وبّختكِ؟

-أخبرتني أنها من جانبها، سامحتني، وأن الباقي يتعلق بمعرّفي الديني وأنا.

نظرتْ أندريه نظرةً جادة وقالت: علينا أن نفهمها، إنها مسؤولة عن روحي، وهي أيضاً، لا يجب أن تعرف دائماً ما يريده الله منها، هذا ليس بالأمر السهل لأيّ شخص.

- قلت بشكل غامض: لا، هذا ليس بالأمر السهل

كنتُ في حالة من الغضب، كانت مدام غالار تعذب أندريه، والآن هي الضحية!

قالت أندريه بصوت متأثر: إنّ أمي تحدثت معي بطريقة أزعجتني، هل تعرفين، لقد واجهت هي أيضاً أوقاتاً عصيبة، عندما كانت صغيرة.

نظرت أندريه حولها:

- هنا بالضبط، على هذه الطرقات، مرّت بأوقات عصيبة.

هل كانت جدتكِ متسلطة جداً؟

- نعم.

حلمتْ أندريه للحظة:

- تقول أمي إنّ هناك نِعماً منها أنّ الله يقدّر وفق طاقتنا التجاربَ التي يرسلها لنا، وأنه سوف يساعد برنار، وأنه سيساعدني كما ساعدها.

بحثت عن نظراتي:

- سيلفي، إذا كنت لا تؤمنين بالله، كيف يمكنك تحمل العيش!

- قلت: لكني أحبُّ أنْ أعيش.

- وأنا أيضاً، لكن بالضبط إذا كنتُ أعتقد أنّ الناس الذين أحبهم سيموتون جميعاً، فقد أقتلُ نفسي على الفور.

- قلت لنفسي: لا رغبة لي في أن أقتل نفسي.

تركنا ظلّ شجرة التين وعدنا إلى المنزل في صمت، تناولت أندريه القربان يوم الأحد التالي.

الفصل الثاني

اجتزنا شهادة التعليم الثانوية، وبعد فترة طويلة من الجدل، منحت مدام غالار لأندريه ثلاثة سنوات من الدراسة في جامعة السوربون، اختارت أندريه الآداب أما أنا فاخترت الفلسفة؛ كنا نعمل في كثير من الأحيان جنباً إلى جنب في المكتبة، لكني كنتُ أجدُ نفسي وحيدةً في المحاضرات، كانت لغةُ الطلاب وأسلوبُهم وكلماتُهم تجعلني أشعر بالجفول؛ بقيت متمسكةً بالأخلاق المسيحية وبدوا لي متحرّرين للغاية، لم يكن من قبيل المصادفة أن اكتشفت أنّ لديّ تناغماً مع باسكال بلونديل، الذي اشتهر أنه كاثوليكي ملتزم، كنت حساسة لذكائه بقدر ما كنت كنت حساسة لتعليمه المثالي ولوجهه الملائكي الجميل، كان يبتسمُ لجميع رفاقه لكنه كان ينأى بنفسه عن الجميع، ويبدو حذراً من الطالبات بشكلٍ خاصّ.

تغلبت حماستي الفلسفية على تحفظه، كان بيننا محادثات مطولة ورفيعة المستوى حاصل الكلام، ما عدا موضوع وجود الله، كنا متفاهمين تقريباً على جميع المسائل، قررنا أن نتعاون، كان باسكال يكره الأماكن العامة والمكتبات والحانات لذلك كنت أذهب للدراسة في منزله، كانت الشقة

التي كان يعيش فيها مع أبيه وأخته، تشبه شقة والدي، وقد خيب أملي تفاهة غرفته، عند الخروج من كلية أديلعيد، كنت أتصور الشباب كأخوةٍ في جمعية دينية غامضة إلى حدٍّ ما، افترضت أنهم كانوا أكثر تقدماً مني في أسرار الحياة؛ أثاث ذهبي لباسكال، كتبه، الصليب العاجي ولوحات للرسام غريكو، لم يكن هناك ما يشير إلى أنه كان من جنس آخر غير جنسي أنا وأندريه، كان لديه منذ فترة طويلة الحق في الخروج بمفرده في الليل والقراءة بحرية، لكن سرعان ما رأيت أن أُفُقَه كان محدوداً مثلي، لقد نشأ في مؤسسة دينية حيث كان والده مدرساً، وأحب دراسته وعائلته فقط، لم يكن لديّ عندها أية فكرة أخرى سوى الرحيل عن منزلي وكنت أتعجب من شعوره أنه على أحسن حال في منزله، كان يهزّ رأسه ويقول بنغمة الحنين الذي يظهره كبار السن من الرجال عندما يأسفون على ما فات: ((لن أكونَ أبداً سعيداً مثلما أنا عليه الآن)).

أخبرني أنّ والده كان رجلاً رائعاً، وأنه تزوج متأخراً، بعد أن كان شاباً صعباً، وجد نفسه أرملاً في سن الخمسين مع فتاة في العاشرة وطفل عمره بضعة أشهر؛ لقد ضحّى بنفسه بالكامل من أجلهم، أما أخته، فقد عدَّها باسكال قديسة.

لقد فقدت خطيبها في الحرب وقررت ألاّ تتزوج أبداً، وشعرُها البني، الذي تمّ سحبُه للخلف وتجميعه في شكل ذيل حصان كثيف، يكشف عن جبينٍ كبير مخيف؛ بشرتها بيضاء، وعيناها مليئتان بالحياة، وذات ابتسامة مشرقة وقاسية؛ كانت ترتدي فساتين داكنة، مخيطة دائماً على نفس الطراز من التقشف الأنيق وتضيئُها ياقةٌ بيضاء كبيرة؛ كانت قد وجّهت بحماس تعليم شقيقها الذي حاولت توجيهه نحو الكهنوت عندما كنت أشتبه في أنها تحتفظ بمذكرات خاصة، وأنها تظنُّ نفسها أوجيني دي غيران؛ أثناء إصلاحها جوارب الأسرة بيديها السميكتين الحمراوتين قليلاً، كانت تلجأ لترنيم أقوالاً لـ فيرلين: ((الحياة متواضعة مع الأعمال المملة والسهل))، كنت أرى باسكال بصفته تلميذاً جيداً، وابناً صالحاً، ومسيحياً صالحاً، عاقلاً أكثر مما ينبغي بقليل، كنت أقول لنفسي أحياناً إنه يبدو كأنه طالب مدرسة دينية صغير خلع ثوب الرهبنة؛ وكنت من ناحيتي أزعجه في أكثر من مسألة، ومع ذلك، حتى عندما كان أصبح لدي لاحقاً رفاق آخرين أثاروا اهتمامي، فإنّ صداقتنا ظلت ثابتة، لقد كان هو مَن اصطحبته معي ليراقصني في اليوم الذي احتفلت فيه عائلة غالار بخطوبة مالو.

بفضل دورانها حول قبر نابليون، وشمّها زهور الباجاتيل، وتناول السلطة الروسية في غابات لاندز، انتهى الأمر بمالو، التي كانت تحفظ مسرحيات كارمن ورواية مانون ليسكو ولاكبمي عن ظهر قلب، بالعثور

على زوج، منذ أن قامت بتصفيف شعر سانت كاترين، كانت والدتها تكرّر لها كلّ يوم: ((ادخلي الدير أو تزوجي، العزوبة ليست قدراً))، في مساء أحد الأيام، عند مغادرتها للأوبرا، صرّحت مدام غالار: ((هذه المرة عليك أن تقرري إمّا أن تقبلي أو لا، ستكون الفرصة التالية لأندريه)).

لذلك وافقت مالو على الزواج من أرمل يبلغ من العمر أربعين عاماً ولديه ابنتان يحملُ همّهما، خُصّص صباح أحد الأيام للرقص على هذا الشرف.

أصرت أندريه على مجيئي، لبستُ فستاناً من ماركة جيرسي من الحرير الرمادي كانت قد تركته ابنة عمٍّ لي قد دخلت لتوها الدير، وذهبت لأقابل باسكال أمام منزل عائلة غالار، حقّق السيد غالار تقدماً كبيراً خلال تلك السنوات الخمس، وهم يسكنون الآن في شقة فاخرة في شارع ماربوف نادراً ما مررت به.

قالت لي مدام غالار مرحباً من طرف شفتيها؛ لم تعدْ تعانقني منذ فترة طويلة ولم تعد تكترث حتى لأن تبتسم في وجهي؛ ومع ذلك كانت تنظر إلى باسكال بازدراء من دون لوم: كانت جميع النساء معجبات به بسبب هيئته الشديدة والمتحفظة، نظرت إليه أندريه بابتسامة من ابتساماتها المتتالية؛ كانت تحيطُ عينيها هالةٌ سوداء، وكنت أتساءل إذا لم تكن تبكي، قالت لي:

((إذا كنت تريدين أن تضعي مسحوقاً للتجميل، فهناك ما تحتاجيه في غرفتي))، تلك كانت دعوة سرّية بشكل لبق.

بين أفراد عائلة غالار، كان استخدام مسحوق التجميل مسموحاً به؛ بينما كانت والدتي وأخواتها وصديقاتها يدينون ذلك، قالوا ((مسحوق التجميل يفسد البشرة))، كثيراً ما قلنا لبعضنا بعضاً، أنا وأخواتي، بالنظر إلى بشرة هؤلاء السيدات الكئيبة: إنّهن يدفعن ثمن تعقلهن بشكل خاطئ بئيس، مررت بنفخة بودرة على وجهي، ومشطت شعري، الذي قصصته من دون تكلف، وعدت إلى غرفة الجلوس، كان الشباب يرقصون تحت الأنظار المليئة بالحنان للسيدات اللواتي تقدم بهن بالعمر، لم يكن عرضاً جميلاً، فقد كان اللباس الحريري، ولباس الساتان الملمّع بالكثير من الألوان الصاخبة أو بألوان الطيب في شيء من المبالغة، واللباس المفتوح الصدر إلى الكتفي، واللباس على شكل ستائر خرقاء، تزيد من قباحة هؤلاء الشباب المسيحيين، الذين تدربوا بشكل مميّز على نسيان جسدهم الهادي، فقط أندريه تسرُّ الناظرين إليها، شعرها لامع وأظافرها تتلألأ، وكانت ترتدي فستاناً جميلاً مع وشاح أزرق داكن وحذاء ناعم، ومع ذلك، على الرغم من العضلات الصحية الممتلئة التي رُسمت على خديها كانت تبدو مرهقة.

- قلتُ لباسكال: كم هذا محزن!

- ماذا هنالك!

- كلّ هذا الذي تراه!

- قال بمرح: لكن لا.

لم يكن باسكال يشاركني شدتي أو حماستي النادرة؛ كان يقول إنه يمكن أن نجد عند كل كائن شيء ما يعجبنا؛ لهذا كان الجميع يحبه بنظراته اللطيفة والمجاملة، كان الجميع يشعر بالحب، دعاني إلى الرقص ومن ثم رقصتُ مع آخرين.

كانوا جميعاً قبيحين، ولم يكن لديّ ما أقوله لهم، وليس لديهم ما يقولونه لي، الجو حارٌّ، كنت أشعرت بالملل، لم يغفل ناظري عن أندريه؛ تبتسم لجميع من يراقصها من دون تمييز، كانت تحيّي السيدات المسنّات بشيء من الوقار نجحت معه في الحيازة على إعجابي بقوة أكثر من اللازم، لم أكن أحبُّ رؤيتها تؤدّي دورها بكل سهولة كفتاة شابة يُعجَب بها الجميع، هل ستمضي نحو الزواج مثل أختها؟ كنت أتساءل بكثير من القلق، قبل بضعة شهور، كانت أندريه قد قابلت برنار في مدينة بياريتز، كان يرتدي وهو يقود السيارة بالكامل لباساً أبيضاً، و يلبس الخواتم، وهناك بجانبه شقراء جميلة سيرة حياتها ظاهرياً سيئة، تصافحا من دون أن يجدا أيّ شيء يقولانه لبعضهما، قالت لي أندريه: ((أمي كانت على حق، لم نُخلق

لبعضنا))، كنت أفكر أنه ربما كان الأمر مختلفاً لو لم يتمّ الفصل بينهما،
لا، على أية حال، منذ تلك المقابلة، لم تعدْ أندريه تتحدث عن الحب إلاّ
بمرارة، وتمكنت من الاقتراب منها في الفاصل بين رقصتين.

- هل من سبيل للتحدث لمدة خمس دقائق؟

وضعت يدها على رأسها، لا بد أنها كانت تعاني من صداع، فقد كان
يحدث لها هذا كثيراً هذه الأيام، ((موعدنا على الدرج في الطابق العلوي))،
سأتدبر أمر انسحابي بهدوء، وألقت نظرة إلى الأزواج من الراقصين التي
كان يعاد تشكيل.

((أمهاتنا لا يسمحن لنا بالخروج في نزهة مع شاب، وينفجرن من
الضحك وهن يشاهدننا نرقص، يا لبراءتهن!))، في كثير من الأحيان، كانت
أندريه تقول بلا مراعاة وبصوت عالٍ ما كنت بالكاد أهمس به لنفسي، نعم،
كان ينبغي على هؤلاء المسيحيّات الطيبّات أن يقلقن لرؤية بناتهن يرمين
أنفسهن، وهنّ محتشمات وفي حالة زحام، بين أحضان الرجال.

ومثلما كنت أكره دروس الرقص عندما كنت في الخامسة عشرة من
عمري! كنت أحسُّ بشعور عدم ارتياح لا يمكنُ تحديده يشبه الغثيان في
المعدة، والتعب عند الحزن، ولم أكن أعرف الأسباب، ومنذ أن عرفت معنى

ذلك، رفضت الرضوخ له، لذا بدا لي أنه من العقلاني والمزعج أن يكون بإمكان أوّل رجل التقي به أن يتحكم بمزاجي، من خلال الاتصال فقط.

لكن من المؤكّد أنّ معظم هؤلاء العذارى كنّ أكثر سذاجة مني أو أقلّ احتراماً لذاتهن، لكن بما أني الآن بدأت أفكر في الأمر، وكنت أشعر بالانزعاج عند النظر إليهم، لكن ماذا عن أندريه؟ كنت أتساءل في نفسي، غالباً ما أجبرتني بسبب سخريتها وتهكمها على طرح الأسئلة التي كانت تعيبني حتى في اللحظة التي كنت أقوم فيها بصياغة هذه الأسئلة، انضمت إليّ أندريه على الدرج، جلسنا إلى أعلى درجة.

- قالت لي: من الجيد أن نتنفس قليلاً! هل يؤلمك رأسك؟

- نعم.

ابتسمت أندريه.

- ربما كان هذا الاختلاط هو السبب في تناولي الشراب بنهم ومن دون تمييز هذا الصباح، عادةً، ولكي أدخل في سياق الحياة اليومية كنت أتناول القهوة أو كأساً من النبيذ الأبيض، واليوم قمت بخلط الاثنين.

- القهوة والنبيذ؟

- لم يكن الأمر سيئاً إلى هذا الحدّ، فقد أعطاني هذا الشيء نوعاً من التحريض.

توقفت أندريه عن الابتسام:

- لم أنمْ طوال الليل، أنا حزينة جداً على مالو!

لم تتفاهم أندريه مع أختها أبداً، لكنها كانت تغتمّ لكل ما يحدث للناس.

- مسكينة مالو! تابعتْ الحديث، لقد سعتْ مسرعةً لمدة يومين لاستشارة جميع صديقاتها، جميعهن قلن لها أن تقبل، خصوصاً غيت.

قالت أندريه باستهزاء:

- تقول غيت إنه من غير المحتمل للفتاة عندما تبلغ الثامنة والعشرين أن تمضي لياليها وحيدة!

- وهل البقاء مع رجل لا نحبه أمر مضحك؟

ابتسمتُ وقلت:

- هل ما تزال غيت تؤمن بالحب السرّي المقدّس من النظرة الأولى؟

- أفترض ذلك، قالت أندريه، كانت تلعب بعصبية بالسلسلة الذهبية التي تحمل ميدالياتها.

- آه! إنه ليس بالأمر السهل، قالت أندريه، أنت، سيكون لديك مهنة، ستكونين قادرةً على خدمة شيء ما من دون أن تتزوجي، لكن الفتاة العانس عديمة الفائدة مثل غيت، هذا ليس أمراً جيداً.

كنت غالباً ما أبتهج بالقول، بأنانية، إنّ البلاشفة وشرور الحياة قد دمّرا والدي، كان مجبراً على العمل، ولم تكن المشاكل التي كانت تقضّ مضجعَ أندريه تهمّني.

سيكون من المستحيل حقاً أن يدعك تتقدمين للحصول على شهادة التعليم؟

- قالت أندريه: مستحيل! في العام المقبل، سآخذ مكان مالو

- وستسعى أمك إلى تزويجك؟

بدت الابتسامة على وجه أندريه.

- أعتقد أنّ هذا قد بدأ بالفعل، هناك شابٌ صغير خريج المدرسة متعددة الفنون يشكّك في ذوقي بشكل مستمر، أخبرته أنني أحلم بالكافيار ودور الخياطة والأزياء والنوادي الليلية، وأنّ نوع الرجال الذي أفضله هو من صنف الممثل والمخرج لويس جوفيت.

- وهل صدّقك؟

- على أية حال، بدا قلقاً.

تجاذبنا أطراف الحديث لبضع دقائق أخرى ونظرت أندريه إلى ساعتها:

- يجب أن أعود للأسفل.

كنت أكره ذلك السوار الصغير الذي يذكرني بالعبودية، عندما كنا نقرأ في المكتبة في الضوء الهادئ للمصابيح الخضراء، وعندما كنا نشرب الشاي في شارع سوفلو، وعندما نسير في أزقة لوكسمبورغ، فجأة ألقت أندريه نظرة إلى الساعة، وهربت مذعورة: ((أنا متأخرة!)) كان لديها دائما أشياء أخرى تفعلها، أمها ترهقها بالأعمال المنزلية التي تقوم بها بحماسِ رجلٍ تاب عن خطاياه، تصر على عشقها لوالدتها، وإن كانت قد انقادت لعصيانها في بعض الأمور، فذلك لأنها أجبرتها عليها.

بعد فترة وجيزة من إقامتي في بيتاري - كانت أندريه تبلغ من العمر خمسة عشر عاماً فقط في ذلك الوقت - قامت مدام غالار بإطلاعها على الأمور المتعلقة بالحب مع نضارة ودقة ما كان يجعلها ترتجف عند استذكارها للماضي، وفي وقت لاحق، سمحت لها والدتها بشكل هادىء أن تقرأ أعمال الفيلسوف لوكريتوس والشاعر جيوفاني بوكاتشيو، والكاتب فرانسوا رابليه، ولم تكن الأعمال الفجة وحتى الفاحشة، تقلقُ تلك المسيحية، لكنها كانت تدين من دون جدوى أولئك الذين كانت تتهمهم بتشويه العقيدة والأخلاق الكاثوليكية، ((إذا كنت تريد التعرف إلى دينك، فاقرأ ما كتبه آباء

الكنيسة))، كانت تقول ذلك عندما ترى بين يدي أندريه أعمال الكاتب المسرحي والشاعر كلوديل مورياك أو الكاتب جورج برنانوس، كانت ترى أني أمارس تأثيراً مفسداً على أندريه، وتريد منعها من رؤيتي، بتشجيع من مديرٍ لديه أفكار واسعة، استطاعت أندريه المقاومة بقوة، لكن لكي تجعل الآخرين يقبلون دراستها وقراءتها، وصداقتنا، جدّت في تحقيق ما وصفته مدام غالار واجباتها الاجتماعية بطريقة لا تشوبها شائبة.

لهذا السبب كانت تعاني من الصداع في كثير من الأحيان، لم تكن تجد وقتاً لممارسة العزف على الكمان أثناء النهار إلاّ بصعوبة؛ ولدراستها لم تكن تستطيع تخصيص سوى لياليها، وعلى الرغم من أنها وجدت كثيراً من السهولة، إلاّ أنها لم تكن تحصل على قسط كافٍ من النوم، غالباً ما كان باسكال يراقصها في نهاية اليوم؛ أثناء مرافقته لي إلى المنزل، قال لي بهيئة المقتنع:

- لطيفة صديقتك، لقد رأيتك كثيراً معها في السوربون، لماذا لم تقدّميني أبداً لها؟

- لم تخطر لي الفكرة، أجبت.

- أودّ رؤيتها مرة أخرى.

- سيكون الأمر سهلاً.

فوجئت أنه أظهر حساسية لجاذبية أندريه؛ كان لطيفاً مع النساء، كما هي الحال مع الرجال وحتى أكثر من ذلك بقليل، لكنه بالكاد كان يحترمهن على الرغم من تسامحه العام، إلا أنه كان يظلّ من جانب آخر غير لين الجانب، أما بالنسبة لأندريه، فقد كان عدم الثقة أول ردّ فعلٍ لها أمام وجه جديد.

مع نموها، اكتشفت بكلّ عارٍ وخزيٍ الهاوية التي كانت تفصل تعاليم الإنجيل عن السلوك الانتفاعي والأناني والدنيء للملتزمين بالتقاليد الدينية، كانت تدافع عن نفسها ضدّ نفاقهم بشكل متحيز فيه الكثير من التهكم.

كانت تصدقني عندما أخبرها أن باسكال ذكيٌّ للغاية، لكن على الرغم من أنها كانت تثور على الغباء، إلا أنها لم تكن تعلق أهمية تذكر على الذكاء:

- ما الفائدة من ذلك؟

- كانت تتساءل بنوع من الانزعاج، لم أكن أعرف بالضبط ما كانت تبحث عنه، لكنها كانت تقابل جميع القيم المعترف بها بنفس الشكوك، إذا حدث لها ووقعت في حب فنان أو كاتب أو ممثل، فقد كان ذلك دائماً لأسباب متناقضة، فهي لا تقدّر فيهم

سوى الصفات التافهة أو حتى الملتبسة، كان قد سحرها الممثل جوفيه من خلال دور مخمور لدرجة أنها نشرت صورته في غرفتها؛ هذه الولع كان يمثل قبل كلّ شيء تحدٍّ كبير للفضائل الخاطئة عند الناس الخيّرين؛ لكنها لم تكن تأخذه على محمل الجدّ، فيما كانت جدية عندما أخبرتني عن باسكال:

- - لقد وجدتُه لطيفاً جداً.

لذلك جاء باسكال ليشرب الشاي معنا، في شارع سوفلو، ورافقنا إلى مدينة لوكسمبورغ، ومنذ المرة الثانية، تركتُه بمفرده مع أندريه وبعد ذلك كثيراً ما التقيا من دوني، لم أكن أشعر بالغيرة، منذ تلك الليلة التي كنت فيها في مطبخ بيتاري، بدأت أهتمُّ بأندريه بشكل أقلّ وكنت قد اعترفت لها كم كنت متعلقةً بها، ما تزال تعني لي الكثير، لكن الآن هناك بقية الناس، وأنا، لم تعد هي كلّ شيء.

كانت مدام غالار تبدو متحرّرة طوال فصل الربيع بسبب ارتياحها لرؤية أندريه تصل إلى نهاية دراستها من دون أن تفقد إيمانها أو آدابها، ولرضاها عن استقرار ابنتها الكبرى، لم تعد أندريه تنظر إلى ساعتها كالسابق؛ فقد كانت ترى باسكال كثيراً وجهاً لوجه، وفي كثير من الأحيان كنا نخرج نحن الثلاثة معاً، سرعان ما اكتسب تأثيراً عليها، لقد بدأ

بالضحك على أدبها، وعلى تأملاتها اللاذعة، وعلى نكاتها المقززة، لكنه سرعان ما عاتبها على تشاؤمها، أكّد لها بقوله: ((الإنسانية ليست سوداء إلى هذا الحدّ))، كانوا يناقشون مشكلة الشر والخطيئة والعفو واتهم أندريه بالنزعة الينسينية ضد الكاثوليكية، صُدمت جداً بهذا، في البداية كانت تقول لي بدهشة: ((يا له من شاب!)) ثم قالت لي في هيئة من الحيرة: ((عندما أقارن نفسي بباسكال، كنت أعطي نفسي انطباعاً أني خادمة عجوز مريرة))، وانتهى الأمر بها أن قررت أخيراً أنه كان على حقّ.

قالت لي: ((التفكير المسبق بشكل سيءٍ في إخوتك من بني البشر هو إهانة لله))، وقالت لي أيضاً: ((يجب على المسيحيّ أن يكون صارماً، لكن غير معذب))، وأضافت بحماس: ((باسكال هو أول مسيحي حقيقي التقيت به!)).

لا شيء هناك أكثر من دلائل وحجج باسكال، لقد كان وجوده بالذات هو الذي صَالح أندريه مع الطبيعة البشرية ، مع العالم ومع الله، فقد كان يؤمن بالسماء، ويحب الحياة، وكان مبتهجاً ولا عيب فيه: لذلك لم يكن كل الرجال سيئين، ولا كل الفضائل باطلة، ويمكننا الفوز بالجنة من دون التخلي عن الأرض، كنت مبتهجة أنّ أندريه أقنعت نفسها بذلك، قبل ذلك بعامين، بدا أن إيمانها كان يتذبذب: ((لا يوجد سوى إيمان واحد ممكن، كما

أخبرتني حينها، إنه إيمان لا يهتز))، منذ ذلك الحين تعافت، كل ما كنت أتمناه هو أن لا تكوّن عن الدين فكرةً قاسية للغاية، باسكال، الذي كان يشاركني قناعاته، كان في وضع أفضل مني لطمأنتها أن القلق على النفس أحياناً ليس أمراً إجرامياً، من دون إدانة السيدة غالار، أكّد لأندريه أنها كانت محقة في الدفاع عن حياتها الشخصية، وكان يكرر لها: ((الله لا يريدنا أن نكون أغبياء، إذا وهبنا عطاياه، فذلك لكي نستخدمها)) كانت هذه الكلمات تشكل نوراً لأندريه؛ بدا الأمر كأن ثقلاً هائلاً سقط عن كتفيها، بينما كانت أشجار الكستناء في لوكسمبورغ مغطاة بالبراعم، ثم بأوراق الشجر والزهور، رأيتها تتغير، كانت ترتدي بذلة الفانيلا وجرس القش وقفازاتها، وكان هيئتها منكمشة كفتاة صغيرة، كان باسكال يمازحها بلطف.

لماذا ترتدين دائماً القبعات التي تخفي وجهك؟ ألا تخلعين قفازاتك أبداً؟ هل يمكن أن نقترح على شخصٍ شابٍ محترم الجلوس على شرفة المقهى؟ بدت سعيدة عندما كان يضايقها، لم تشتري قبعة جديدة، لكنها نسيت قفازاتها في أسفل حقيبتها، جلست على شرفات شارع سان ميشيل، وعادت مرة أخرى الحيوية لمشيتها كما في الوقت الذي كنا نتنزه فيه تحت أشجار الصنوبر، حتى ذلك الحين، ظل جمال أندريه بطريقة ما سرياً موجوداً في أعماق عينيها، يظهر من خلال وميض في وجهها، لكنه غير مرئي تماماً، فجأة، كان يتدفق على سطح جلدها، وانفجر في وضح

النهار، رأيتها مرة أخرى ذات صباح برائحة الخضار، على بحيرة بوا دو بولوني؛ كانت تمسك بالمجاديف، من دون قبعة، من دون قفازات، وبأذرع عارية، كانت تفرش الماء بيدها بمهارة؛ شعرها لامعٌ، وعيناها مليئتان بالحياة، ترك باسكال يده تسحب في الماء ويغني بالكتمان: كان صوته جميلاً ويعرف الكثير من الأغاني.

كان هو أيضاً يتغير، بدا كطفل صغيرٍ جداً أمام والده وخاصة أخته، عندما كان صبياً، كان يتحدث إلى أندريه بسلطة الرجل؛ هذا لا يعني أنه كان يؤدي هذا الدور، بل ببساطة، كان يضع نفسه على مستوى حاجتها منه، إمّا أنني قد أسأت فهمه، أو أنه كان ينضج، على أية حال، لم يعد يبدو كطالب مدرسة دينية؛ بدا لي أقل ملائكيةً من السابق، لكنه أكثر بهجة؛ والبهجة تناسبه جيداً، بعد ظهر يوم الأول من أيار مايو، كان في انتظارنا على شرفة حديقة لوكسمبورغ، عندما رآنا، صعد على الدرابزين، وجاء لمقابلتنا، بخطوات رجل متوازن صغيرة، مستخدماً ذراعيه كرقاص الساعة في كلّ يد، كان يحمل باقة من زنبق الوادي، قفز على الأرض وسلمها لنا معاً، باقتي لم تكن موجودة سوى من أجل التناسق، لم يقدّم لي باسكال الزهور أبداً، لقد فهمت أندريه ذلك، فقد احمرت خجلاً، كانت هذه هي المرة الثانية في حياتنا التي أراها فيها حمراء الخدود، وفكرت، ((إنهما يحبان بعضهما))، إنه حظٌ رائع أن تحبك أندريه؛ لكنني أبتهج قبل

كلّ شيء من أجلها، لم يكن بإمكانها أن تتزوج من رجل غير مؤمن ولم يكن بإمكانها أن تريد ذلك؛ فلو كانت قد سلمت نفسها إلى حب مسيحي متشدّد مثل السيد غالار، لكانت قد ذابت، إلى جانب باسكال تمكنت أخيراً من التوفيق بين واجباتها وسعادتها.

لم يكن لدينا الكثير لنفعله، في نهاية هذا العام، كنا نتسكع كثيراً، لم يكن أحد منّا نحن الثلاثة ثرياً، لم تكن مدام غالار تعطي بناتها سوى مصروف الجيب الضروري لشراء مذكرات وجوارب، والسيد بلونديل يريد من باسكال أن يكرّس نفسه حصرياً لامتحاناته، فقد كان يمنعه من إعطاء دروس خصوصية، مفضلاً أن يثقل نفسه بساعات العمل الإضافية، وأنا، لم يكن لدي سوى تلميذين يدفعان مبلغاً سيئاً، ومع ذلك، تمكنا من الذهاب إلى قاعة اورسولين (Ursulines) لمشاهدة أفلام مجردة ومسرحيات طليعية في مسارح جمعية كارتل، عندما غادرت، كنت ما أزال في نقاش طويل مع أندريه وباسكال يستمع بكلّ تساهل، اعترفَ أنه كان يحب الفلسفة فقط، الفن والأدب كانا يضجرانه لأنه لا نفع منهما؛ لكن عندما كانا يزعمان أنهما يمثلان الحياة، كان يحكم عليهما أنهما زائفان، كان يقول: إنّ المشاعر والمواقف في الواقع ليست دقيقة ولا درامية كما تبدو في الكتب.

كانت أندريه تجد هذا الانحياز للبساطة منعشاً، إجمالاً، كان لديها ميلٌ كبير لأخذ هذا العالم بشكل مأساوي، كان من الأفضل لها أن تكون حكمة باسكال قصيرة بعض الشيء، لكنها مرحة مبتسمة.

بعد الامتحان الشفوي لشهادتها الذي اجتازته ببراعة، ذهبت أندريه في نزهة مع باسكال، لم يدعها أبداً إلى منزله، وهي من دون شك لن تقبل، كانت تخبر والدتها بشكل غامض أنها تخرج معي ومع بعض الأصدقاء، لكنها لم تكن تريد أن تعترف لها أو أن تخفي عنها أنها قضت فترة الظهيرة مع شاب، كانا دائماً يتقابلان في الخارج ويتجولان كثيراً، لاقيتها في اليوم التالي في مكاننا المعتاد، تحت أنظار جامدة لملكة منحوتة من الحجر، كنت قد اشتريت كرزاً، كرزاً أسوداً كبيراً تحبه، لكنها رفضت تذوقه، بدت منشغلة، بعد فترة قالت لي:

- - لقد تحدثت إلى باسكال عن قصتي مع برنار.

كان صوتها متوتراً.

- - ألم تخبريه قط عن الأمر؟
- - لا، كنت أرغب في القيام بذلك فترة طويلة، كنت أشعر بضرورة إخباره بذلك، لكني لم أكن أجرؤ على ذلك.
- ترددْتُ:

- - كنت أخشى أن يحكم علي بشكل سيء للغاية.

- قلت: يا لها من فكرة!

- على الرغم من أنني كنت أعرف أندريه منذ عشر سنوات، إلا أنه غالباً ما أزعجني.

لم نرتكب، أنا وبرنار، أيّ خطأ أبداً، قالت بصوت جادّ، لكننا كنا نقبل بعضنا في النهاية ولم تكن قبلات أفلاطونية، إنّ باسكال نقيٌّ جداً، وكنت أخشى أن يصاب بصدمة رهيبة.

وأضافت بكل قناعة:

- - لكنه شديد على نفسه فقط.

- قلت: كيف كان سيصاب بالصدمة؟ كنتِ أنت وبرنار أطفالاً وكنتما تحبان بعضكما.

- قال أندريه: يمكنك أن تخطئ في أيّ عمر، والحبُ لا يبرّر كلّ شيء.

- - قلت: يجب أن يكون باسكال قد وجدك ذات نزعة ينسينية ضد الكاثوليكية!

لم أكن أفهم تأنيبه؛ صحيح أنني أيضاً كنت أفهم بشكل سيء ما تعنيه هذه القبلات الطفولية بالنسبة لها.

- قالت: لقد فهم جيداً، هو دائماً يفهم كلّ شيء.

نظرت حولها:

- أعتقد أنني فكرت في قتل نفسي عندما فصلتني والدتي عن برنار، كنت متأكدة من أنني سأحبّه إلى الأبد!

كان هناك تساؤلٌ قلقٌ في صوته.

-قلت: ((في الخامسة عشرة، من الطبيعي أن يخطئ الانسان)).

بطرف حذائها، كانت أندريه ترسمُ خطوطاً في الرمال.

- في أيّ عُمر يُسمح لنا بالتفكير، هل هذا إلى الأبد؟

كان وجهها يتصلب عندما تكون قلقة، كان يبدو شبه عظمي.

- قلت: الآن، أنت لا تخطئ.

قالت: ((أعتقد ذلك أيضاً)).

واصلتْ رسمَ خطوط غير واضحة على الأرض

- لكن كيف يمكننا التأكد من أنّ الشخص الآخر الذي نحبه، سيحبنا دائماً؟

- قلت: يجب أن تشعري بذلك.

مدتْ يدها إلى الكيس الورقي البني وأكلتْ بصمت بضع حبات من الكرز.

- قالت أندريه: قال لي باسكال إنه لم يحب حتى الآن أية امرأة.

وراحت تبحث عن نظراتي:

- لم يقل: لم أكن قد أحببت قط، قال: لم أحب قط.

فابتسمتُ.

- باسكال دقيق، إنه يزن كلماته.

- قالت أندريه: ((لقد طلب أن نذهب إلى تناول القربان معاً صباح الغد)).

لم أجب، بدا لي أنه لو كنت مكان أندريه، لكنت شعرتُ بالغيرة من رؤية باسكال يتناول القربان، وهو مخلوقٌ بشريٌّ، قليل جداً مقارنةً بالله، صحيح أنه في الماضي كنت أحبُّ أندريه والله حباً كبيراً جداً.

من الآن فصاعداً، كان من المتفق عليه بيني وبين أندريه أنها تحب باسكال، أما بالنسبة له، فقد تحدث معها بثقة أكبر مما في الماضي، أخبرها أنه بين سن السادسة عشرة والثامنة عشرة كان يريد أن يصبح كاهناً، أثبت له

مديره أنه ليس لديه تلك النزعة حقاً، كانت أخته قد أثّرت عليه، فما كان يريده من المدرسة هو ملاذاً من هذا العصر ومن مسؤوليات الراشدين التي كانت تخيفه، كان هذا التوجس قد استمرّ لفترة طويلة وفسّر تحيز باسكال تجاه النساء، إنه يعيّرهن الآن بشدّة..

قال لأندريه مبتهجاً: ((الطهارة لا تكمن في رؤية كل امرأة شيطاناً))، قبل أن يتعرف إليها، لم يكن يقوم باستثناءات إلاّ لأخته التي كان يرى أنّ روحاً نقية، ولي لأنني لم أكن على دراية بكوني امرأة، لقد فهم الآن أنّ النساء كنساء هنّ مخلوقات الله، ((ومع ذلك، لا يوجد سوى أندريه واحدة في العالم))، أضاف بكثير من الحرارة لدرجة أنّ أندريه لم تعدْ تشكُّ في أنه يحبها.

- سألتها: هل ستكتبان لبعضكما الرسائل خلال الإجازات؟

- نعم.

- ماذا ستقول مدام غالار؟

- قالت أندريه: إنّ أمي لا تفتح رسائلي أبداً، وسيكون لديها أشياء أخرى لتفعلها غير مراقبة البريد.

كانت هذه العطلات ستكون محمومة بشكل خاصّ بسبب خطوبة مالو؛ تحدثت عنها معي أندريه بقلق، وسألتني:

- قلت: هل ستأتين إذا سمحت لي أمي بدعوتكِ؟

- قلت: إنها لن تسمح لكِ بذلك.

- ليس مؤكداً، ستكون كلٌّ مِن مين وليليت في إنكلترا، والفتاتان التوأمان صغيرتان بحيث أنه لن يكون تأثيرك خطير، ضحكت أندريه، وأضافت بجدية:

- - أمي تثق بي، والآن؛ أمرّ بأوقات عصيبة، لكن انتهى بي الأمر بالفوز بثقتها، لم تعد تخشى أن تحرفيني.

كنت أشكّ في أنّ أندريه تتمنى مجيئي ليس فقط بدافع الصداقة تجاهي لكن لأنها يمكن أن تتحدث معي عن باسكال؛ لم أرغب في شيء أفضل من أن ألعب دور الصديق المقرب، وكنت سعيدة جداً عندما أخبرتني أندريه أنها كانت تعتمد عليّ في بداية أيلول.

***

خلال شهر آب، تلقيتُ من أندريه رسالتين فقط، كانتا قصيرتين جداً؛ تكتب من فراشها عند الفجر، قالت لي: ((خلال النهار، لم يكن دقيقة لنفسي))، كانت تنام ليلاً في غرفة جدتها التي تنام نوماً خفيفاً؛ ومن أجل أن تقوم بالمراسلات، ولكي تقرأ، كانت تنتظر حتى ينتقل الضوء عبر المصاريع، بيت بيتاري مليءٌ بالناس، هناك الخطيب،

وشقيقتاه، عانستان ضعيفتان تراقبان أندريه طوال الوقت؛ كان هناك كلّ أبناء عمومة ريفيير دي بونويل؛ أثناء الاحتفال بخطوبة مالو، نظّمت مدام غالار لقاءات من أجل أندريه، كان موسماً رائعاً فالاحتفالات تعقب الاحتفالات.

كتبت لي أندريه: ((هكذا أتخيل مكان التطهير الديني))، في أيلول، كان من المقرر أن ترافق مالو إلى منزل والدي العريس، هذا الاحتمال يرهقها، لحسن الحظ، تلقت رسائل طويلة من باسكال، لم أستطع الانتظار لرؤيتها مرة أخرى، في ذلك العام شعرت بالملل في سادينارك، والوحدة تثقل علي.

كانت أندريه تنتظرني على الرصيف، مرتدية فستاناً وردياً من الكتان وقد سرّحت شعرها بتسريحة جرس القش؛ لكنها لم تكن وحيدة، ركضت الفتاتان التوأمان، إحداهن ترتدي قماشاً قطنياً ورديّ والأخرى ترتدي قماشاً قطنياً أزرق، على طول القطار وهما تصرخان:

- ها هي سيلفي! مرحبا يا سيلفي!

بشعرهن القاسي الجاف، وعيونهن السوداء، ذكّرتاني بالفتاة الصغيرة ذات الفخذ المحترق التي أخذت قلبي قبل عشر سنوات؛ فقط خدودهن

كانت ممتلئة أكثر، ونظراتهنّ أقلّ جرأة، ابتسمت لي أندريه بابتسامة قصيرة مفعمة بالحيوية لدرجة أنها بدت لي متألقة بالصحة.

- - قالت لي وهي تمدّ يدها إلي: هل كانت رحلتكِ لطيفة؟

- قلت: نعم، دائماً عندما أسافر بمفردي.

نظر إلينا الصغار نظرة نقدية:

- لماذا لا تقبّلها؟ سألت التوأم الأزرق أندريه.

- قالت أندريه: ((هناك أناس نحبهم كثيراً ولا نقبلهم)).

- قالت التوأم الوردي: هناك أشخاص نقبلهم ولا نحبهم.

- قالت أندريه: ((بالضبط))، وأضافت: احملا حقيبة سيلفي إلى السيارة.

- أمسكت الصغيرتان بحقيبتي ومشتا وهنّ تقفزان نحو سيارة ستروين سوداء متوقفة أمام المحطة.

- سألتُ أندريه: كيف تسير الأمور؟

- قالت: ((ليست بشكلٍ جيد ولا بشكلٍ سيئ، سأخبرك)).

انزلقتْ أمام المقود وجلستُ بجانبها، استقرت الفتاتان التوأمان في المقعد الخلفي الذي كان مكتظاً بكومة من الحزم، من الواضح أني وقعت

وسط حياة شديدة التنظيم، قالت السيدة غالار: ((قبل الذهاب للبحث عن سيلفي، اذهبي للتسوق وارجعي لتأخذي الصغيرتين))، عند الوصول، كان يجب تفريغ كلّ هذه الطرود، أندريه ترتدي قفازات، تقلّب بعناية المقابض وتنظر إليها باهتمام أكبر، لاحظتُ أنّها فقدت وزنها.

- قلت لها: لقد فقدتِ بعض الوزن.

- ربما قليلاً.

- بالطبع: أمي توبخها، إنها لا تأكل أيّ شيء، صرخت إحدى التوأمان.

- ردّدت الأخرى ما قالته الأولى: ((إنها لا تأكل أيّ شيء)).

- قالت أندريه: لا تتفوها بحماقات، لو لم أكن آكل شيئاً لكنتُ ميتة.

انطلقت السيارة ببطء، على المقود، كانت الأيدي التي ترتدي القفاز تبدو كفؤة، علاوة على ذلك، كل ما كانت تفعله أندريه، كانت تفعله جيداً.

- هل تحبين القيادة؟

- قالت أندريه: لا أحب أن أكون السائق طوال اليوم، لكني أحبُّ القيادة.

كانت السيارة تسير بسرعة عبر شجيرات الأكاسيا الكاذبة، لكنني لم أتعرّف إلى الطريق؛ فالانحدار العظيم حيث كانت مدام غالار تستخدم المكابح بالكامل، والمرتفع حيث كان الحصان يجهد بالسير فيه بخطوات صغيرة، أصبح فيه كلّ شيء مسطحاً، وصلنا إلى الشارع، كانت نبات البقس قد تمّ تقليمه حديثاً، أما القلعة فبقيت على حالها، لكن أمام درجات المدخل، تمّت زراعة أزهار في مساكب من أسرة بيغونيا وشجيرات من الزيانيا.

-قلت: ((لم تكن تلك الزهور موجودة من قبل)).

- قالت أندريه: لا، إنها قبيحة؛ لكن الآن بعد أنْ أصبح لدينا بستانيّ، علينا أن نبقيه مشغولاً، أضافت بسخرية، وأخذتْ حقيبتي:

- أخبرا أمي أني قادمة على الفور، قالت للتوأمين.

تعرفتُ إلى الدهليز ورائحته الريفية؛ كانت درجات السلم تطقطق كما في الماضي، لكن عند العتبة استدارت أندريه يساراً:

-لقد وضعوكِ في غرفة التوأمين اللتان ستنامان معي ومع جدتي، فتحت أندريه باباً ووضعت حقيبتي على الأرض:

- تدّعي أمي أننا لو بقينا معاً فلن يغمض لنا جفن.

- قلت: يا للأسف!

- نعم، لكنه من الجميل جداً أن تكوني هنا! قالت أندريه، أنا سعيدة للغاية!

- وأنا أيضاً.

- قالت: ((انزلي بمجرد أن تكون جاهزةً))، يجب أن أذهب لمساعدة أمي.

أغلقتُ الباب، لم تكن تبالغ عندما كتبت لي: ((ليست لديّ دقيقة)) أندريه لم تكن تبالغ أبداً، ومع ذلك، فقد وجدتُ الوقت المناسب لاختيار ثلاث وردات حمراء من أجلي، أزهارها المفضلة. تذكرت إحدى مقالاتها الإنشائية في طفولتها: ((أحبُّ الورود؛ إنها أزهار الطقوس والاحتفالات تموت من دون أن تذبل، وهي في حالةٍ من الانحناء تعبيراً عن الاحترام)).

فتحتُ الخزانة لأعلّق ثوبي الوحيد من اللون البنفسجي المحيّر؛ وجدتُ فيها رداء حمام وحذاءً وكذلك فستاناً أبيض جميلاً مزركشاً بدوائر حمراء، وكانت أندريه قد وضعت صابون اللوز، وزجاجة من العطر، ومسحوق أرز، وظل راشيل على منضدة التبرّج، لقد حركتْ وحدتها عواطفي.

- ((لماذا هي لا تأكل؟)) سألت نفسي، ربما تكون مدام غالار قد احتجزت الرسائل، وماذا في ذلك؟ لقد مرّت خمس سنوات، هل ستبدأ نفس القصة مرة أخرى؟

غادرتُ غرفتي ونزلت السلم، إنها لن تكون نفس القصة؛ فأندريه لم تعد طفلة، كنت أشعر وأعلم أنها تحب باسكال حباً لا يطاق، وأطمئن نفسي أن أكرّر أنّ مدام غالار لن تجد ما تعترض به على زواجهما؛ حاصل الكلام، عموماً يمكن تصنيف باسكال في فئة ((الشاب الجيد من جميع النواحي)).

صدرت ضجة عظيمة من غرفة الجلوس، أرعبتني فكرة مواجهة كل هؤلاء الأشخاص العدائيين إلى حدٍّ ما، لم أعد أنا أيضاً طفلةً، دخلت المكتبة لأنتظر فيها جرس العشاء، تذكرت الكتب واللوحات والألبوم الكبير ذا الغلاف الجلدي المنقوش الذي كان مزيناً بإكليل وزخارف مثل صندوق السقف؛ قمت بفك المشبك المعدني، توقف نظري عند صورة السيدة ريفيير دي بونويل في الخمسين من عمرها، مع العصابات السوداء المسطحة رأسها وهيئتها الاستبدادية، لم تكن تشبه الجدة اللطيفة التي أصبحت عليها؛ لقد أجبرت ابنتها على الزواج من رجلٍ لا تريده، قلبت بضع صفحات وفحصت صورة مدام غالار كفتاة صغيرة، كان قميصها يحبس رقبتها، وشعرها منتفخ فوق وجه ساذج بريء؛ حيث تعرفت فيه على فم أندريه،

وهو فمٌ حادٌّ وسخيّ لا يبتسم؛ كان هناك شيء جذاب في عينيها، لقد وجدتها على مسافة أبعد قليلاً، جالسةً بجانب رجل شابٍ ملتحٍ، وتبتسم لرضيع قبيح؛ وفي عينيها، ذاك الشيء كان قد اختفى.

أغلقتُ الألبوم، مشيت إلى باب النافذة، فتحته قليلاً؛ كان النسيم يتلاعب بنبتة عملة البابا ويجعل الدفوف الضعيفة تصدر صوتاً، والأرجوحة تصدر صريراً، فكرت ((كانت في سننا))، وكانت تستمع تحت نفس النجوم إلى همسة الليل وكانت تعِدُ نفسها: ((لا، لن أتزوجه))، لماذا؟ فهو لم يكن قبيحاً ولا أحمقاً، كان لديه مستقبلاً مشرقاً وكثيراً من الفضائل، هل كانت تحبُّ شخصاً آخر؟ هل اخترعت أوهاماً لنفسها؟ اليوم كانت تبدو وكأنها خُلقت تماماً للحياة التي عاشتها! دق جرس العشاء ودخلت غرفة الطعام.

لقد صافحت أيدٍ كثيرة، الجميع سألني عن أخباري لكنهم سرعان ما نسوني، طوال الوجبة، دافع تشارلز وهنري ريفيير دو بونويل بشكل صاخب عن مدرسة "*الحركة الفرنسية*" ضدّ البابا الذي كان السيد غالار يدافع عنه، بدت أندريه غاضبة، أما بالنسبة لمدام غالار، فمن الواضح أنها كانت تفكر في شيء آخر حاولت من دون جدوى العثور على ذلك الوجه

المصفر لتلك الفتاة الصغيرة الموجودة في الألبوم، مع ذلك قلت لنفسي إنّ لديها ذكريات، ما هي هذه الذكريات؟ وبماذا استخدمتها واستفادت منها؟

بعد العشاء، لعب الرجال لعبة الجسر وأخذت النساء عملهن، في ذلك العام، كانت القبعات الورقية رائجة، كان يتمّ قصّ الورق السميك إلى شرائح رقيقة يتمّ ترطيبها لتصبح طرية لينة، ويتمّ تجديلها بإحكام وصقل المجموع بنوع من الورنيش، تحت أعين شابات عائلة سانتيني، كانت أندريه تصنع شيئاً أخضر.

- سألت: هل سيكون هذا جرساً؟

- لا، قبعة كبيرة، قالت بابتسامة مدركة.

طلبت منها ايناس سانتيني أن تعزف على الكمان لكن أندريه رفضت، أدركتُ أنني لا أستطيع أن أكلمها عن الأمسية، وصعدت إلى الطابق العلوي للنوم مبكراً، لم أرها بمفردها لمدة دقيقة في الأيام التالية، في الصباح كانت تعتني بالمنزل، وفي فترة ما بعد الظهيرة، تكدس الشباب في سيارة السيد غالار وفي سيارة تشارلز للذهاب للعب التنس أو الرقص في القلاع المحيطة، وإلا كنا سننزل في بعض القرى لحضور مسابقة لعبة كرة الباسك، أو مصارعة الثيران، كانت أندريه تضحك عندما كان الموقف يستوجب الضحك، لكني لاحظت أنها في الواقع لم تأكل شيئاً تقريباً.

ذات ليلة، استيقظتُ عندما سمعتُ باب غرفتي يُفتح:

- سيلفي، هل أنت نائمة؟

اقتربت أندريه من سريري، تلف نفسها برداء حمام بيلو حافية القدمين.

- كم الساعة؟

- إنها الواحدة، إذا لم تكوني نعسانة جداً، فلننزل إلى الطابق السفلي؛ سنكون أفضل حالاً في الطابق السفلي للدردشة، هنا يمكن سماع صوتنا، ارتديتُ رداء غرفة النوم، ونزلنا الدرج متجنبين إحداث صوت على درجاته، دخلت أندريه المكتبة وأضاءت المصباح:

- في الليالي الأخرى، لم أستطع النهوض من الفراش من دون إيقاظ جدتي، إنه لأمر مدهش كم هو خفيف نوم كبار السن.

قلت: ((كانت لدي رغبة عارمة في التحدث إليك)).

- وأنا أيضاً! تنهدت أندريه:

لقد كان الأمر على هذا النحو منذ بداية الإجازات، هذا هو الحظ السيء، هذا العام كنت كثيراً ما أتمنى أن أُترك وشأني قليلاً.

- سألتها: أما تزال أمك لا تشكّ في شيء؟

قالت أندريه يا للحسرة! انتهى الأمر بأن لاحظت أنّ هذه الأظرف مكتوبة بخط يد رجل، الأسبوع الماضي استجوبتني.

هزت أندريه كتفيها:

- على أية حال، كان عليَّ أن أتحدث معها اليوم أو في يوم آخر.

-ثم ماذا؟ ماذا قالت؟

قالت أندريه: ((لقد أخبرتُها بكلّ شيء))، لم تطلب رؤية رسائل باسكال ولم أكن لأريها لها؛ لكني قلتُ كلّ شيء، لم تمنعني من مواصلة الكتابة إليه، أخبرتني أنها بحاجة إلى التفكير في الأمر، جالت أندريه بنظرها في أنحاء الغرفة؛ كما لو أنها تطلب المساعدة؛ فالكتب القاسية وصور الأجداد لم تُصنع لطمأنتها.

- هل بدت مستاءة جداً؟ متى ستعرفين ماذا قررتْ؟

قالت أندريه: ((ليس لدي أية فكرة))، لم تعلّق، لقد طرحتْ الأسئلة فقط، على سبيل المثال قالت بنبرة جافة: يجب أن أفكّر في الأمر.

- ما من سبب يدعوها لتعترض على باسكال، قلت بحرارة، حتى من وجهة نظرها، إنه ليس طالب زواج سيئ، لا أعلم، في بيئتنا الزواج لا يتمّ بهذا الشكل، قالت أندريه، وأضافت بمرارة:

- زواج الحب هو زواج ينظر إليه بريبة.

- لن يمنعوك من الزواج من باسكال لمجرد أنك تحبينه!

كررتْ أندريه بصوت مشتّت: ((لا أعرف))، نظرت إليّ نظرة سريعة وأشاحت بنظرها عني، - قالت: لا أعرف حتى ما إذا كان باسكال يفكر في الزواج مني.

قلت: هيا! لم يخبرك عن ذلك لأنه أمرٌ مفروغٌ منه، بالنسبة لباسكال، حبكِ ورغبتُه في الزواج منكِ هما الشيء نفسه.

قالت أندريه: لم يخبرني أبداً أنه يحبني.

- قلت: أعرف، لكن في باريس، مؤخراً، لم تكن لديكِ شكوك، وكنتِ على حق: لقد كان ذلك واضحاً جداً.

كانت أندريه تلعب بميدالياتها؛ بقيت صامتة للحظة.

- في رسالتي الأولى، أخبرتُ باسكال أني أحبه؛ ربما كنت مخطئة، لكني لا أعرف كيف أشرح لكِ ذلك، هل أصمت، لقد أصبح ذلك كذبة على الورق.

هزت برأسي؛ لقد كانت أندريه دائماً غير قادرة على الغش.

قالت أندريه: لقد ردّ عليّ برسالة لطيفة للغاية، لكنه قال إنه لا يشعر بالحق في لفظ كلمة حبّ، لقد أوضح لي أنه في حياته العلمانية كما في حياته الدينية، لم تكن لديه أية حقائق واضحة؛ إنه يحتاج إلى اختبار مشاعره.

- قلت: لا تقلقي، لطالما انتقدني باسكال لأنني أقرر آرائي بدلاً من وضعها على المحك؛ إنه هكذا! يحتاج أن يأخذ وقته، لكن التجربة سرعان ما ستكون حاسمة.

كنت أعرف باسكال جيداً بما يكفي لأعرف أنه لا يلعب أية لعبة؛ لكنني شجبتُ تردّده، كانت أندريه ستنام بشكل أفضل، وكانت ستأكل أكثر لو أنها متأكدة من حبه لها.

- هل أخبرته عن محادثتك مع مدام غالار؟

- قالت أندريه: نعم

- سترين بمجرّد أن يخشى أن تكون علاقاتكما في خطر، سيكون لديه دليل.

كانت أندريه تعضعض إحدى ميدالياتها.

قالت من دون اقتناع: أنا أنتظر لأرى.

- بصراحة يا أندريه، هل تتخيلين أنّ باسكال يمكن أن يحبّ امرأة أخرى؟

ترددتْ:

- قد يكتشف أنه ليس لديه ميول للزواج.

- أنت لا تفترضين أنه ما زال يفكر في أن يكون كاهناً!

قالت أندريه: ((ربما كان سيفكر في الأمر لو لم يقابلني))، قد أكون نخاً تمّ وضعُه في طريقه لحرفه عن طريقه الصحيح.

نظرتُ إلى أندريه بانزعاج، قال باسكال إنها ذات نزعة ينسينية ضدّ الكاثوليكية؛ كان الأمر أسوأ، كانت تشتبه في أنّ لله مكائد شريرة.

- قلت: هذا سخيف، في أقصى حدٍّ، أتخيل أنّ الله يمكن أن يغري النفوس لكن لا يخدعها.

هزت أندريه كتفيها.

-يقولون عليك أنْ تؤمن لأنه أمرٌ مناف للعقل، لذلك انتهى بي الأمر إلى التفكير في أنه كلما بدت الأشياء أكثر عبثية زاد احتمال أن تكون صحيحة، تجاذبنا أطراف الحديث لفترة، لكن فجأة فُتح باب المكتبة.

- قال صوت خافت: ماذا تفعلان هنا؟، كانت ديدي، فتاة التوأم التي ترتدي اللون الوردي، والتي كانت تحبها أندريه.

- قالت أندريه: وأنتِ؟ لماذا لستِ في سريركِ؟

اقتربت ديدي وهي ترفع قميصها الأبيض الطويل بكلتا يديها:

-لقد أيقظتني جدتي عندما قامت بتشغيل مصباح، وسألتْ أين كنتِ: قلت إنني سأرى أين أنتِ. ..

وقفت أندريه.

-كوني لطيفة، سأخبر جدّتي أنني كنت أعاني من الأرق وأنني نزلت إلى المكتبة لأقرأ، لا تتحدثي عن سيلفيا، أمي ستوبخني.

-قالت ديدي: ((هذا كذب)).

- سأكذب أنا، لن يكون عليكِ الكذب، عليكِ فقط أن تصمتي.

ثم أضافت بثقة:

-عندما تكبرين، سيكون مسموحاً لكِ الكذب أحياناً.

-قالت ديدي بحسرة: من المريح أن أكون كبيرة.

- قالت أندريه، وهي تداعب رأسها: ((هذا يحمل إيجابيات وسلبيات)).

-يا لها من عبودية! فكرت وأنا أعود إلى غرفتي، ولا واحدة من حركاتها وسكناتها لم تتحكم فيها أمها أو جدتها، ولم تصبح على الفور

أنموذجاً لأخواتها الصغيرات، ولا فكرة كانت هناك لم يكن متوجباً عليها فيها أن تحسب حساباً لله!

((هذا هو الأسوأ))، قلت لنفسي في اليوم التالي، بينما كانت أندريه تصلي بجانبي إلى مقعدٍ تحفظُه صفيحةٌ نحاسيةٌ عمرها ما يقارب قرناً في ريفيير دي بونوي، كانت مدام غالار تحمل الآلة الموسيقية القديمة، والفتاتان التوأمان تحملان سلالاً مليئة بالخبز المقدس تدوران بها عبر الكنيسة؛ كانت أندريه تتحدث إلى الله وهي تضع رأسها بين يديها؛ لكن بأية كلمات؟ لم يكن يبدو أنّ لديها علاقات بسيطة معه؛ كنت متأكدةً من شيء واحد، أنها لم تستطع إقناع نفسها أنه طيب، ومع ذلك، لم تكن تريد أن تغضبه وحاولت أن تحبه، كان من الممكن أن تكون الأمور أسهل لو أنها فقدت إيمانها، مثلي، بمجرد أن فقدَ إيمانُها براءتَه، أخذتُ أتابعُ الفتاتين التوأمان بعيني، لم يكن لديهما وقت فراغ وكانتا مهمتين، في سنّهما هذا، الدين، إنه لعبة ممتعة للغاية، كنتُ قد رفعتُ اللافتات المزركشة وألقيتُ ببتلات الورد أمام الكاهن المزينة ثيابه بالذهب والذي كان يحمل القربان المقدس، كنت أرتدي رداء القربان وقبّلتُ حجارة أرجوانية كبيرة على أصابع الأساقفة، المذابح التي كانت تُقدّم عليها القرابين خلال الشهر الذي يبارك القديسة مريم، المهد، المواكب، الملائكة، البخور، كلّ هذه العطور، رقصات الباليه، هذه الزينة المبهرة كانت هذه هي الرفاهية الوحيدة في

طفولتي، كنتُ مبهورةً بكلّ هذه الروعة، كم هو ممتع أن تشعر أنّ هناك بداخلك روحاً بيضاء ومشرقة مثل المضيف المذهب المخصّص للعبادة الذي يظهر للمصلين متلألأً في مكانه من الكنيسة.

ثم في يوم من الأيام، تغرق الروح والسماء في الظلام، ويجد الندم طريقاً إلى نفسك، الخطيئة والخوف، كانت أندريه تأخذ كل ما حولها على محمل الجدّ حتى عندما كان يقتصر تفكيرها على أمور الحياة الدنيا؛ كيف كان يمكن للقلق ألا يعتريها وقد تخيلت حياتها في الضوء الغامض للعالم الخارق للطبيعة؟ ربما كان الوقوف في وجه والدتها تمرّدٌ على الله نفسه، لربما بخضوعها تكون قد أظهرت أنها لا تستحق النعم التي نالتها، كيف تعرف إن كانت بحبها لباسكال لا تخدم مقاصد الشيطان؟ في كلّ لحظة، كان خلود الروح على المحك ولم يكن هناك أيّ مؤشر واضح عما إذا كنا نفوز به أو نخسره! لقد ساعد باسكال أندريه في التغلب على هذه الأمور المرعبة، لكن محادثتنا الليلية أظهرت لي أنه كان يمكن لها أنِ تسقط مجدداً وبسرعة في هوة الرعب، بالتأكيد إنها لن تجد سلام القلب في الكنيسة، لازمني شعور الظلم هذا طوال فترة الظهيرة، وأخذت أنظر بلا فرح إلى الأبقار ذات القرون المدببة، المحملة بالفلاحين الشباب الذين يعتليهم التوتر، خلال الأيام الثلاثة التي تلت ذلك، كانت جميع نساء المنزل مشغولات بلا هوادة في أقبية المنازل، وقمت أنا نفسي بتقشير البازلاء، ونزع بذور الخوخ.

في كلّ عام، كان كبار مُلاّك الأراضي في المنطقة يجتمعون على ضفاف نهر الأدور لتناول أطباق باردة؛ كان هذا العيد البريء يتطلّب تحضيرات طويلة، قالت لي أندريه: ((كل عائلة تريد أن تفعل أفضل مما تفعله العائلات الأخرى، وأن يكون كلّ عام أفضل من العام الذي سبقه))، عندما حلّ الصباح، تمّ تحميل سلتين مليئتين بالطعام والأطباق في شاحنة مستأجرة، تكدّس الشباب فوق بعضهم في المساحة التي كانت فارغة؛ تبعنا كبار السن والمخطوبين في السيارات، كنت قد ارتديت الفستان الأحمر المنقّط الذي أعارته لي أندريه؛ هي كانت ترتدي فستاناً من قماش الحرير الخام، مع حزام أخضر يتناسب مع قبعتها الكبيرة التي بدت كأنها ليست من ورق، مياه زرقاء، وبلوط قديم، وعشب كثيف كان ليصبح مأوى لنا، لكننا تناولنا السندويش على وجبة الغداء، تحدثنا حتى المساء، كانت لتصبح ظهيرة يوم طافحة بالسعادة، قلت لنفسي بحزن وأنا أساعد أندريه في تفريغ السلال: لا يوجد إلا المتاعب! كان علينا ترتيب الطاولات، وترتيب البوفيه، ونشر مفارش المائدة في أماكنها، وصلت السيارات الأخرى، سيارات عتيقة، وحتى عربة ستيشن قديمة يجرّها حصانان.

بدأ الشباب على الفور بنقل الأطباق، كبار السّن يجلسون إلى جذوع الأشجار المغطاة بالقماش المشمع أو على المقاعد القابلة للطي، أندريه تلقي عليهم التحية بابتسامات وتوقير، كانت تروق بشكل خاصّ للرجال الأكبر

سناً وهي تلقي لهم خطابات طويلة، وفي غضون ذلك، كانت تتناوب مع مالو وغيت اللذان يديران كرنك آلة معقدة تهدف إلى تغيير الكريمة التي تمّ تحميلها بها إلى ثلج، كنت أساعدهم أيضاً! ((هل تدركين ذلك!)) قلت، وأنا أشير إلى الموائد المغطاة بالطعام.

- قالت أندريه: ((نعم، من حيث أداء واجباتنا الاجتماعية، فنحن جميعاً مسيحيون بكل ما للكلمة من معنى!)).

لم ننجح بتحويل الكريمة إلى ثلج، فتراجعنا عن هذه الفكرة، وتجمعنا حول أحد مفارش المائدة، في دائرة الشباب اللذين تزيد أعمارهم عن عشرين عاماً، كان ابن العم تشارلز يتحدث بصوت مميز مع فتاة شابة قبيحة للغاية وذات ملابس رائعة، لم يكن لون الثياب أو القماش معروفين في قاموسنا، غمغمت أندريه: ((هذه النزهة مع الأكل في الطبيعة تشبه حفلاً راقصاً بامتياز)).

- قلت: ((أهي مقابلة؟ الفتاة بشعة للغاية)).

((لكنها ثرية جداً))، قالت أندريه وأردفت بلهجة ساخرة: هناك ما لا يقلّ عن عشر زيجات لم تخرج إلى العلن، في ذلك الوقت، في تلك الأثناء، كانت الشراهة تتملكني، لكن كثرة الأطباق والجدية التي توزع فيها النادلات أحبطتني وحدّت من أكلي، الأسماك بالهلام، والأقماع، والشرائح،

والصواني، وأطباق الدجاج، واليخنات، والأطباق الساخنة والباردة، والفطائر، والحلويات، كان عليك تذوق كلّ شيء ومدح كلّ شيء، وإلا سنكون قد أسأت إلى شخص ما، علاوة على ذلك، تحدثنا عما أكلناه، أصبح لأندريه شهية أفضل من المعتاد، وفي بداية الوجبة كانت مبتهجة إلى حدّ ما؛ جارها إلى اليمين، رجل وسيم ذو شعر داكن ويبدو مغروراً، يبحث باستمرار عن نظراتها ويتحدث إليها بصوت منخفض؛ لكنها سرعان ما بدت غاضبة، الغضب أو النبيذ جعل اللون الوردي يرتفع قليلاً إلى عظام وجنتيها؛ أحضر جميع أصحاب مزارع الكروم عينات من نبيذهم، وأفرغنا العديد من الزجاجات، تطورت المحادثة وانتهى بنا الأمر فيها أن نتحدث عن الهوى: هل يمكننا الوقوع في الهوى؟ إلى أيّ حدّ؟ بشكل عام، كان الجميع ضدّ تلك الفكرة، لكنها فرصة للسخرية بين الفتيان والفتيات؛ على العموم، كأنّ شيئاً ما يكبل بعض هؤلاء الشباب مع أنّ بعضهم الآخر يذهب في هذا الأمر إلى نهايته من دون رادع.

كان هناك الكثير من الضحك المشاغب، بدأ الشباب المبتهجون في سرد قصص لائقة، لكن بنبرة توحي أن بإمكانهم سرد قصص غير لائقة، نتحنا قدراً كبيراً من زجاجات الشمبانيا، واقترح أحدهم أن نشرب جميعاً من نفس الكأس حتى يعرف كلٌّ منا أفكار جاره؛ مرت الكأس من يدٍ الى أخرى، عندما أفرغ الشاب الأسمر الوسيم المغرور كأسه، سلمه لأندريه

وهمس بشيء في أذنها؛ بظهر يدها، أرسلت الكأس يتدحرج على العشب، قالت بصوت واضح: لا أحبّ أن يتمّ خلط الأمور، ساد صمتٌ محرج وانفجر تشارلز ضاحكاً: لا تريدنا أندريه أن نعرف أسرارها؟ قالت: لا أريد أن أعرف أسرار الآخرين، إلى جانب ذلك، لقد شربت بالفعل كثيراً، ثم وقفت قائلة: سأحضّر القهوة، تبعتُها بنظرة حائرة، لو كنت مكانها لشربتُ من دون مشكلة، نعم، كان هناك شيءٌ مقلق في هذا الفجور البريء: لكن، بمَ يعنينا هذا؟

مما لا شكّ فيه أنّ هذا الأمر كان انتهاكاً للحرمات في نظر أندريه، هذا اللقاء الزائف بين فمين يحتسيان كأساً من الكحول؛ هل فكرت في القبلات القديمة التي قدمها برنارد؟ وتلك التي لم يكن باسكال قد قدمها بعد؟ لم تعد أندريه، قمت أنا أيضاً، وأقحمت نفسي في دغل شجر البلوط، تساءلت مرة أخرى بيني وبين نفسي عما كانت تعنيه عندما تحدثت عن القبلات الأفلاطونية، ما تعلمته عن المشكلات الجنسية كان موثقاً بشكل قوي، خلال طفولتي ومراهقتي، كان جسدي يملك أحلامه الخاصة به، لكن لم يشرح لي علمي الكبير ولا تجربتي الصغيرة الرابط بين ما تجسده لذة الجسد وبين الحنان والسعادة، بالنسبة لأندريه، كان هناك ممرٌّ بين القلب والجسد ظلّ غامضاً بالنسبة لي، غادرتُ الدغل الصغير، ومع تعرج نهر الأدور

وجدت نفسي على ضفته، سمعت صوت شلال في قاع الماء الشفاف، بدت الحصى المرقطة التي تشبه الحلوى.

((سيلفي!)) ... كانت مدام غالار، وكنت تبدو حمراء بالكامل تحت قبعة القش:

- ((هل تعرفين أين أندريه؟))

- قلت: ((أنا أبحث عنها)).

مرت ساعة تقريباً على اختفائها؛ إنها قمة الوقاحة، قلت لنفسي: ((في الحقيقة، إنها في الحقيقة قلقة))، لا شكّ أنها أحبت أندريه بطريقتها الخاصة: بأية طريقة؟ كان هذا هو السؤال، كنا نحبها كلنا، كلٌّ على طريقته الخاصّة، في تلك اللحظة كان صوت الشلال يصمّ آذاننا بعنف، توقفت مدام غالار:

- ((كنت على يقين من ذلك!))، هناك تحت شجرة، بالقرب من كومة من نبات اللحلاح، ظهر فستان أندريه وحزامها الأخضر وثوبها المصنوع من الكتان الخشن، اقتربت مدام غالار من النهر: - ((أندريه!)) تحرّك شيءٌ عند سفح الشلال، ظهر رأس أندريه.

- ((تعالي إذاً! إنّ الماء رائع!))

- ((اخرجي الآن في الحال!))

سبحت أندريه نحونا، كان وجهها يضحك.

- ((مباشرة بعد الغداء! إنّ هذا قد يتسبب لك بعسر هضم!))

قالت مدام غالار، رفعت أندريه نفسها إلى الضفة، كانت تلفّ نفسها في عباءة قامت بتشبيكها بالدبابيس؛ وشعرها الذي صفّفه الماء كان يتهدّل على عينيها.

- قالت مدام غالار بصوت خافت: ((آه! تبدين جميلة حقاً!)) - ((كيف ستجفين؟))

- ((سأجد الحلّ)).

- قالت مدام غالار: ((أتساءل ما الذي كان يفكر به الرّب الطيب عندما أعطاني مثل هذه الفتاة!))، كانت تبتسم، لكنها أضافت بلهجة قاسية: ((عودي على الفور، أنت لا تلتزمين بجميع واجباتك)).

- ((سأعود))، ابتعدت مدام غالار وجلست أنا إلى الجانب الآخر من الشجرة بينما كانت أندريه تقوم بارتداء ثيابها.

- قالت: ((آه! كم كنت جيدة في الماء!))، ((لابد أنّ الماء كان مثلجاً عندما نزل الشلال على ظهري، أحسست بأنفاسي تتقطع)) قالت أندريه، ((لكنّ ذلك كان جيداً))، قمت بانتزاع نبتة زعفران الخريف من الأرض،

تساءلت عما إذا كانت حقاً سامة، هذه الزهور المضحكة الريفية والفخمة في عرينا والتي خرجت من الأرض دفعة واحدة، مثل الفطر.

- سألت: ((هل تعتقدين أنه إذا تمّ إجبار الأخوات سانتوني على ابتلاع مغليّ هذه النبتة، فسوف يمُتنَ منه؟)).

- ((الفتيات المسكينات! لسن لئيمات))، قالت أندريه، اقتربت مني، كانت قد لبست ثوبها وعقدت حزامها، - لقد جففت نفسي بثيابي، لن يرى أحداً أنني لا أرتدي ثياباً؛ لدينا دائماً الكثير من الأشياء على أجسادنا، ثم قامت بفرد ردائها المبلل ومعطفها المجعد في الشمس:

- ((علينا العودة إلى هناك)).

- واحسرتاه!

- ابتسمت لي وقالت: ((مسكينة سيلفيا! مؤكد أنّ الملل قد أصابك)).

- ((الآن بعد أن انتهت النزهة، أتمنى أن أكون حرة أكثر قليلاً.

- ((هل تعتقدين أنه يمكنك ترتيب أمرك بحيث نرى بعضنا بعضاً قليلاً؟))

- قالت بصوت حازم: سأرتب لذلك بطريقة أو بأخرى))

بينما كنا نسير ببطء على طول النهر قالت:

- ((تلقيتُ رسالةً من باسكال هذا الصباح))

- ((رسالة تحمل أخباراً جيدة؟)) أومأت برأسها:

- نعم.

سحقت ورقة نعناع في يدها واستنشقتها بسعادة.

- لقد قال إنه إذا طلبت أمي التفكير في الأمر مرة أخرى، فهذه علامة جيدة، يقول إنه يجب أن أكون واثقة من علاقتنا.

- هذا ما أعتقده أيضاً.

- قالت أندريه: ((لدي ثقة)).

أردت أن أسألها لماذا ألقت كأس الشمبانيا على الأرض، لكني أخشى أن أحرجها، أندريه تسحر الجميع؛ لم أمرح كثيراً طوال اليوم وفي الأيام التالية لم تكن حرة أكثر من ذي قبل، ليس هناك أدنى شك، لقد تمكنت مدام غالار دائماً من منعنا من رؤية بعضنا، مؤكد أنها عضت أصابعها ندماً لأنها سمحت لي بالمجيء عندما اكتشفت رسائل باسكال، وكانت تقوم ما بوسعها لتصلح خطأها، كنت حزينة أكثر مع اقتراب الفراق، ((في بداية العام الدراسي، سيكون هناك حفلُ زفاف مالو))، قلت لنفسي ذلك الصباح، ستحلّ أندريه محلّ أختها في المنزل وفي الحياة كلها، سأراها خلسة

إما في مزاد خيري أو في جنازة، كان ذلك قبل رحيلي بيومين، وكما كان يحدث لي كثيراً، نزلت إلى الحديقة بينما الجميع ما زالوا نياماً.

الصيف يحتضر، والشجيرات تتحول إلى اللون الأحمر، والتوت الأحمر الجبلي يتحول إلى اللون الأصفر؛ تحت أنفاس الصباح البيضاء، بدا اللون النحاسي لأوراق الشجر أكثر اتقاداً في الخريف، كنت أحب أن أشاهد الأشجار تتوهج فوق العشب، بينما يتكاثف البخار فوقها من البرد، كنت أتابع سيري بحزن في الأزقة المزدحمة حيث لا تنمو الأزهار، تهيأ لي أني أسمع صوت موسيقا ينساب، تركت نفسي منقادةً باتجاه الصوت؛ صوت كمان في الطرف البعيد من الحديقة، كانت أندريه تعزف على الكمان، مختبئة داخل مجموعة من أشجار الصنوبر، ألقت شالاً قديماً على فستانها المصنوع من الجيرسيه الأزرق، وكانت تستمع بهدوء إلى صوت الآلة الموسيقية وهي تسندها على كتفها، شعرها الأسود الجميل مفصولاً من الجانب بمشبك شعر أبيض، يودّ المرء أن يداعبه بحنان واحترام، للحظة، نظرت إلى قوس الكمان وهو يتحرك جيئة وذهاباً، فكرت وأنا أنظر إلى أندريه: ((كم هي وحيدة!)) وعندما انطفأ صوت النوتة الموسيقية الأخيرة، اقتربتُ، وأنا أدهس إبر الصنوبر تحت قدمي:

-آه! قالت أندريه، هل سمعتني؟ هل يمكن سماعي من المنزل؟

- لا، قلت، كنت أتجول هنا، كم تعزفين بشكل رائع! أضفتُ، تنهدتْ أندريه.

- لو فقط كان لدي بعض الوقت للعمل!

- هل تحيين غالباً حفلات في الهواء الطلق كهذه الحفلة؟ - لا، لكن في الأيام القليلة الماضية تملكتني رغبة جامحة في العزف! ولا أريد أن يسمعني كلّ هؤلاء الناس، وضعت أندريه الكمان في بيته الصغير.

- يجب أن أعود إلى المنزل قبل أن تنزل أمي؛ ستقول إني مجنونة وهذا لن يناسب مخططي.

- سألتني ونحن متجهتان إلى المنزل: هل تأخذين الكمان الخاصّ بك إلى عند الأخوات سانتيني؟

-آه! بالتأكيد لا! فكرة هذه الإقامة ترعبني، وأضافت، على الأقلّ أنا هنا في المنزل.

- هل عليكِ حقاً أن تذهبي إلى هناك؟

- قالت: لا أريد أن أتجادل مع أمي في الأمور السخيفة، سيما في الوقت الحاضر.

- قلت لها: أنا أفهم، عادت أندريه إلى المنزل، وجلستُ في وسط العشب مع كتاب بين يدي، بعد ذلك بقليل، رأيتها تقطف الورود مع الأخوات سانتيني، بعد ذلك ذهبت لتقطيع الخشب وتلقيم المدفأة به، سمعتُ ضربات الفأس الصماء، الشمس تشرق في السماء وكنت أقرأ من دون فرح، لم أعدْ متأكدة على الإطلاق من أن قرار مدام غالار يمكن أن يكون إيجابياً، قد يكون لأندريه مهراً متواضعاً مثل أختها، لكنها أجمل بكثير وأكثر ذكاءً من مالو، والدتها بلا شك تغذّي في داخلها طموحات كبيرة، انطلقت صرخة مدوية فجأة، كانت أندريه من أطلقت تلك الصرخة، انطلقت جارية نحو المدفأة، كانت مدام غالار منحنية فوقها؛ كانت أندريه مستلقية في نشارة الخشب، وعيناها مغمضتان، وإحدى قدميها ملطخة بالدماء؛ كان طرف الفأس الحادّ ملطّخاً بلون الدم.

- صرخت مدام غالار: مالو، أحضري حقيبة الاسعاف، لقد جرحت أندريه نفسها! طلبتْ مني أن أذهب وأتصل بالطبيب، عندما عدت، كانت مالو تضمد قدم أندريه ووالدتها تجعلها تستنشق النشادر، فتحت عينيها:

- همستْ لي: لقد نجوتُ من الفأس! قالت مالو إنّ العظم لم يتأثر، إنه جرح كبير، لكن العظم لم يُصب، اعترت أندريه حمى خفيفة ووجدها

الطبيب متعبة جداً، فأمر لها براحة طويلة؛ في هذه الحالة، لن تتمكن من استخدام قدمها لمدة عشرة أيام تقريباً.

عندما ذهبتُ لرؤيتها في المساء كانت شاحبةً للغاية لكنها ابتسمتْ لي ابتسامة كبيرة:

- سأظلّ طريحة الفراش حتى نهاية الإجازة! قالت لي بصوت منتصر.

- سألتُها: هل تأذيتِ؟

- بالكاد! قالت، ثم أضافت، حتى لو تألمت عشر مرات أكثر، بالنسبة إلي أفضل من أن أذهب إلى الأخوات سانتيني، رمقتني بنظرة خبيثة، هذا ما يمكن تسميته بحادث جالب للحظ! حدّقتُ بها في حيرة:

- أندريه! قولي أنك لم تتعمدي فعل ذلك؟

- قالت بمرح: لم أكن أستطيع أن آمل أن يزعج الله نفسه لأجل أمرٍ بسيط كهذا.

- كيف امتلكتِ الشجاعة لفعل هذا! كان يمكن أن تبتري قدمك! رمت أندريه بنفسها وأسندت رأسها على الوسادة:

- لم أستطع التحمل أكثر من ذلك، قالت، حدقتُ في السقف في صمت للحظة، وأمام وجهها ذي البياض الطباشيري ونظراتها الثابتة،

شعرتُ بخوف قديم يولد من جديد في داخلي، أن يرفع المرء الفأس، ثم يجري بها على نفسه، لم أكن لأتمكن أبداً من فعل ذلك؛ مجرد التفكير في هذا جعل الدم يصعد إلى رأسي.

ما أخافني هو ما يحدث في أعماقها في تلك اللحظة:

- هل تشكّ والدتك في شيء؟

- لا أظنّ ذلك.

استقامت أندريه في جلستها:

- أخبرتكِ أنني سأتمكن من العيش بسلام بطريقة أو بأخرى.

- هل كنتِ قد حسمت أمرك فيما قمت به بالفعل؟

- كنت مصممةً على فعل شيء ما، جاءتني فكرة الفأس هذا الصباح أثناء قطف الزهور، لقد فكرتُ في جرح نفسي بمقص التقليم أولاً، لكن ذلك ما كان ليكون كافياً.

- قلت: إنك تخيفيني، رسمت أندريه ابتسامة عريضة:

- لماذا؟ لقد نجحت جيداً في ذلك، لم أجرح قدمي بقوة، وأضافت: هل تريدين أن أطلب من أمي أن تبقيك حتى نهاية الشهر؟

- سوف لن ترغب في ذلك.

- دعيني أتحدث معها!

هل اشتبهت مدام غالار في حقيقة ما زرعت الندم والمخاوف في داخلها؟ أم أنّ تشخيص الطبيب هو الذي يقلقها؟ لقد وافقت على أن أظل في بيثاري لأبقى بجانب أندريه.

كانت أنهار بونوي تنساب وتبتعد في نفس الوقت الذي ابتعدت فيه مالو والأخوات سانتيني، وبين عشية وضحاها أصبح المنزل هادئاً جداً، أصبح لأندريه غرفتها الخاصة وقضيت ساعات طويلة بجانب سريرها.

في صباح أحد الأيام قالت لي: لقد أجريتُ محادثة رائعة مع أمي الليلة الماضية حول باسكال.

- إذاً؟

أشعلت أندريه سيجارة، كانت تدخن عندما تتوتر:

- تحدثتُ بشأنه مع أبي، يبدو أنهما ليس لديهما شيء ضدّ باسكال؛ حتى أنه ترك انطباعاً جيداً لديهما في اليوم الذي أحضرته فيه إلى المنزل، ركزتْ نظرها في عيني: إلاّ أنني أتفهم أمي، إنها لا تعرف باسكال، وتتساءل فيما إذا كانت نواياه جدية.

- سألتُ بأمل: إنها لن تعترض على الزواج.

- لا.

- قلت: حسناً! هذا هو المهم، ألستِ سعيدة؟ سحبت أندريه من سيجارتها، لا يمكن أن يكون هناك زواج قبل سنتين أو ثلاث سنوات...

- أعرف.

- تطالب أمي أن نخطب رسمياً، وإلا ستمنعني من رؤية باسكال، تريد أن ترسلني إلى إنجلترا لقطع الجسور بيننا.

- ستعلنان خطوبتكما، هذا كلّ شيء، تابعت بحماسة..

- نعم، لم يسبق لك طرح المسألة على باسكال، لكنك لا تفترضين أنه سيسمح لك بالرحيل لمدة عامين!

- لا أستطيع أن أجعله يخطبني بالقوة! قالت، أندريه بصوت هائج، طلب مني التحلّي بالصبر، وقال لي إنه يحتاج إلى وقت لتتضح الرؤية بالنسبة إليه، لن ألقيَ بنفسي على رأسه وأصرخ ((هيا نخطب!))

- لن ترمي نفسك على رأسه، ستشرحين له الوضع.

- سيشعر أنه محاصر.

- انها ليست غلطتك! ليست لديك طريقة أخرى.

أصرتْ على موقفها لفترة طويلة، لكنني أقنعتها أخيراً بالتحدث إلى باسكال إلا أنها رفضت إخباره برسالة؛ أخبرتْ والدتها أنها ستجري محادثة معه بمجرد بدء المدرسة، وقبلت ذلك مدام غالار، كانت تبدو باسمة هذه الأيام.

ربما فكرة أننا "فتاتان لعوبان" كانت تدور في خلدها، كانت لطيفة معي إلى حدٍّ ما، وفي كثير من الأحيان، عندما تقوم بترتيب وسائد أندريه، عندما تساعدها على وضع ضوء القراءة في المكان المناسب، كان هناك شيءٌ يبرق في عينيها يذكرني بصورتها وهي فتاة صغيرة، كانت أندريه قد روت لباسكال بنبرة مرحة كيف جرحت نفسها، تلقت منه رسالتين تعبران عن قلقه، قال إنها تحتاج حقاً إلى شخص واعٍ ليحافظ عليها، وأشياء أخرى لم تبلغني بها؛ لكني فهمت أنها لم تعد تشكّ في مشاعره، عاد لونها إلى طبيعته بفضل النوم والراحة، حتى أنّ وزنها زاد قليلا، لم أرها أبداً أكثر إشراقاً من اليوم الذي تمكنت فيه أخيراً من مغادرة سريرها، كانت تعرج قليلاً، وتواجه صعوبة في المشي، أعارنا السيد غالار سيارته السيتروين ليومٍ كامل، نادراً ما أصعد في سيارة، ولم أكن أركب أبداً من أجل سعادتي، بل قلبي يحتفل عندما جلستُ بجوار أندريه وانطلقت السيارة بسرعة في الشارع، كانت جميع نوافذ السيارة مغلقة، وعبر غابة لاندز، اتبعنا طريقاً طويلاً مستقيماً يمتد بين أشجار الصنوبر ليطاول السماء.

كانت أندريه تقود بسرعة كبيرة، وصل مؤشر العداد إلى سرعة ٨٠ كم / ساعة! كنت قلقة بعض الشيء على الرغم من كفاءتها في القيادة.

- قلت: ألن تقتلينا؟

- بالطبع لا! ابتسمت أندريه بسعادة، الآن لم أعد أريد أن أموت على الإطلاق.

- هل كنت تودين ذلك قبلاً؟

- أوه نعم! كلّ ليلة عندما أنام كنت أتمنى ألا أستيقظ، وأضافت بمرح، الآن أدعو الله أن يبقيني على قيد الحياة، تركنا الطريق الرئيسي وسرنا ببطء حول البرك النائمة بين الخلجان، تناولنا الغداء بجوار المحيط في فندق مهجور، الموسم السياحي قد انتهى، غادر الناس الشواطئ، وأغلقت الفيلات في بايون، اشترينا قضبان نوعاً متعددة الألوان من أجل فتاتي الكنيسة التوأم؛ وقمنا بأكل أحدها بينما نسير ببطء باتجاه دير الكاتدرائية، أندريه متكئةً إلى كتفي، كنا نتحدث عن أديرة موجودة في إسبانيا وإيطاليا حيث سنذهب في نزهة يوماً ما، وعن البلدان الأخرى البعيدة، عن الرحلات الرائعة، عند عودتنا إلى السيارة، أشرت إلى القدم المغطاة بالضمادات: لن أفهم أبداً كيف كانت لديك هذه الشجاعة!

- كنت ستقومين بذلك أيضاً لو كان لديك مثلي شعوراً أنّ أحداً ما يطاردك.

- كان الأمر ينتهي معي بصداعٍ فظيع.

- هل انتهيت منه الآن؟

- أقل بكثير، يجب أن أقول إنه مع عدم قدرتي على النوم طوال الليل، كنت أفرط في تناول المنشطات والكولا.

- لن تعودي إلى ذلك من جديد؟

- لا، في بداية العام الدراسي، سيكون هناك أسبوعان صعبان، حتى تاريخ حفل زفاف مالو؛ لكن الآن لديّ القوة.

عدنا إلى الغابة من خلال طريق صغير يمتد على طول نهر الادور، مع ذلك، رتبت مدام غالار لتكليف أندريه بمهمة، كان عليها أن تذهب وتحمل سترة محبوكة من قبل مدام ريفيير دي بونويل إلى فلاحة شابة تنتظر مولوداً، أوقفت أندريه السيارة أمام منزل جميل من طراز منازل جنوب غرب فرنسا، في منتصف مساحة محاطة بأشجار الصنوبر؛ كنت معتادةً على مزارع سديرناك، على أكوام السماد الطبيعي، وعلى تيارات السماد السائل الذي يغذي الأشجار، أذهلتني أناقة هذه المزرعة، المفقودة في الغابة،

ندمت لنا الشابة نبيذاً وردياً صنعه والد زوجها بنفسه، وفتحت خزانة ملابسها لنا للاستمتاع بملاءاتها المطرزة، لديهم رائحة طيبة من لافندر البرسيم الحلو، وهناك طفل يبلغ من العمر عشرة أشهر يضحك في سريره أخذت أندريه تلاعبه

بميدالياتها الذهبية، كانت ما تزال مولعة جداً بالأطفال.

- إنه مدرك لما حوله بالنسبة لعمره! قالت أندريه، في فمه، فقدت تلك الأجزاء المشتركة عند كلّ انسان تفاهتها، لصدق صوته والابتسامة في عينيه.

- وهذا أيضاً لا ينام، قالت المرأة الشابة بمرح وهي تضع يدها على بطنه، كانت ذات شعر داكن وبشرة داكنة مثل أندريه، لديها نفس البنية، أرجل قصيرة قليلاً، لكنها تبدو رشيقة على الرغم من أنها في الأشهر الأخيرة من حملها، قلت لنفسي: ((عندما ستصبح أندريه حاملاً، ستكون هكذا))، تخيلت لأولّ مرة، من دون ملل، أن أندريه متزوجة وأمّ لعائلة، سيكون هناك أثاثٌ جيد ولامعٌ حولها، مثل هذا؛ ستشعر بالراحة في المنزل، لكنها لم تكن لتقضي ساعات في تنقية النحاس الأصفر أو تغطية أواني المربى بالرق؛ ستعزف على الكمان وكنت مقتنعةً سراً أنها ستكتب الكتب، لطالما أحبت الكتب كثيراً والكتابة.

((كم تليق بها السعادة!)) قلت لنفسي بينما تتحدث مع الشابة عن الطفل الذي على وشك الولادة، والطفل الذي أسنانه تنمو.

قلت عندما توقفت السيارة بعد ساعة أمام كتل من زهور الزينيا.

- قالت أندريه: نعم، كنت متأكدة من أنها هي أيضاً قد فكرت في المستقبل، عادت عائلة غالار إلى باريس قبلي بسبب زواج مالو، اتصلتُ بأندريه بمجرد وصولي وحددنا موعداً لنرى بعضنا في اليوم التالي؛ بدتْ على عجلة من أمرها لإنهاء المكالمة ولم أحب الدردشة معها من دون رؤية وجهها، لم أسألها أية أسئلة، انتظرتها في حدائق الشانزليزيه، مقابل تمثال ألفونس دودي، وصلت متأخرة قليلاً ورأيت ذلك على الفور، كان هناك شيئاً ما ليس على ما يرام، جلستْ بجواري من دون أن تحاول الابتسام في وجهي، سألتُ بقلق: ألست على ما يرام؟ لا، قالت وأضافت بصوت لا يترك أثراً في النفس، باسكال لا يريد ذلك.

- لا يريد ماذا؟

- أن نخطب، ليس الآن.

- إذاً؟

- إذاً أمي سترسلني إلى كامبريدج بعد الزفاف مباشرة.

- قلتُ: لكن هذا سخيف! مستحيل! لا يستطيع باسكال السماح لك بالرحيل! قالت أندريه بصوتها الخالي من التعبير، يقول إننا سنكتب لبعضنا بعضاً، وأنه سيحاول أن يأتي مرة واحدة، وأن السنتين ليستا طويلتين؛ بدت كأنها تقرأ تعاليم لم تؤمن بها يوماً!

- قلت: لكن لماذا؟

عادة، عندما تنقل أندريه لي حديثاً، كان ذلك يتمّ بشكل واضح كما لو أني سمعته بأذني؛ هذه المرة أعطتني كلاماً غامضاً بنبرة قاتمة، بدا أنّ باسكال قد تأثر عندما رآها مرة أخرى، فقد أخبرها أنه يحبها، لكن بعد كلمة الخطبة، تغير وجهه.

- لا، قال بسرعة، لا! لن يقبل والده أبداً أن يخطب فتاة في سنٍّ صغيرة جداً؛ بعد كلّ التضحيات التي قدمها لباسكال، كان من حق والده أن يتوقع أن يكرس ابنه نفسه جسدياً وروحياً للتحضير لمسابقته، ستبدو له علاقةً عاطفيةً وكأنها مجرد خسارة، كنت أعرف أنّ باسكال يحترم والده كثيراً، ويمكنني أن أفهم أن ردّ فعله الأول كان الخوف من إيذائه؛

لكن عندما علم أنّ مدام غالار لن تستسلم فكيف لم يحاول شيئاً آخر؟ هل شعر أنّ فكرة الفراق تجعلكِ غير سعيدة؟ هل أخبرته؟

- قليلاً.

كان عليك أن تصرّي، أنا متأكدة من أنك لم تفعلي ذلك.

- قالت أندريه: لقد شعر أنّ هناك من يطارده، أنا أعي ما هو الشعور أنك ملاحقٌ! كان صوتها يرتجف وأدركت أنها بالكاد استمعت إلى حجج باسكال، وأنها لم تحاول دحضها.

- ما زال هناك وقت للدفاع عن الفكرة.

- هل عليّ أن أمضي حياتي في محاربة من أحبهم؟

قالت هذا بعنف لدرجة أنني لم أبدي أيّ إصرار على رأيي، فكرتُ: ماذا لو شرح باسكال وجهة نظره لأمك؟ لقد عرضتُ الأمر على أمي، هذا لا يكفي بالنسبة لها.

قالت إنه إذا كان باسكال يعتزم الزواج مني بجدية، فإنه سيقدمني إلى عائلته؛ وبما أنه يرفض، فإن كلّ ما تبقى هو إنهاء الأمر.

- قالت أندريه: إنّ أمي لديها عبارة مضحكة، وللحظة، غرقت في حلمها. قالت لي:

- ((أنا أعرفك جيداً، أنت ابنتي، أنت من لحمي ودمي، لستِ قوية بما يكفي لأتركك تتعرضين للإغراءات؛ إذا استسلمت لها، فأنا أستحق أن تقع عليّ اللعنة)).

استجوبتني بنظرة وكأنها تأمل أن أساعدها على فهم المعنى الخفي لهذه الكلمات، لكن في الوقت الحالي، لم أكن أبالي بمسلسلات مدام غالار التراجيدية التي تخصّها وحدها، لقد أفقدني تراجع باسكال صبري.

- قلت: ماذا لو رفضتِ المغادرة؟

- أرفض؟ كيف هذا؟

- لن يتمّ اصطحابك بالقوة على متن قارب.

- يمكنني أن أغلق على نفسي في غرفتي وأضرب عن الطعام، وبعد؟ ستذهب أمي وتشرح وجهة نظرها لوالد باسكال، قالت أندريه وأخفت وجهها بين يديها: لا أريد أن أفكر في أمي على أنها عدوة لي! إنه شيء فظيع!

- سأتحدث إلى باسكال، قلتُ بحزم، لم تعرفي كيف تتحدثين معه.

- لن تحصلي على أيّ شيء.

- دعيني أجرّب.

- حاولي، لكنك لن تحصلي على أيّ شيء، كانت النظرة التي أرسلتها أندريه إلى تمثال ألفونس دودي تبدو جدية، لكنّ عينيها تحدقان في شيء آخر غير رخام التمثال الأصم.

- إنّ الله ضدّي.

أجفلني هذا الكفر كما لو كنت مؤمنة، لو سمع باسكال هذا الكلام لقال إنه كفر، قلت: ((إذا كان الله موجوداً فهو ليس ضدّ أحد)).

- قالت: ما الذي نعرفه عنه؟ من يفهم ما هو الله؟

هزت كتفيها: أوه! لعله احتفظ لي بمكان جيد في سمائه، لكن على هذه الأرض، فإنه يكرهني، ومع ذلك، أضافت بصوت عاطفي، هناك أناس في الجنة وكانوا سعداء في هذا العالم! فجأة بدأتْ تبكي:

- لا أريد أن أذهب! سنتان بعيداً عن باسكال، بعيداً عن أمي، بعيداً عنكِ، لن أمتلك القوة!

لم أرَ أندريه تبكي أبداً، حتى عندما انفصلت عن برنار، كنت أود أن أمسك بيدها وأقوم بحركة تخفف عنها، لكني ظللتُ أسيرة ماضينا القاسي ولم أتحرك، فكرتُ في هاتين الساعتين اللتين قضتهُما على سطح قصر بيتاري أتساءل خلالهما عما إذا كانت ستقفز، في تلك اللحظة، كان الظلام يخيّم في أعماق نفسها.

- قلت: أندريه، لن تغادري، من المستحيل ألا أستطيع إقناع باسكال.

قامت بمسح عينيها، ونظرت إلى ساعتها، ووقفت مكرّرة:

- لن تحصلي على أيّ شيء.

كنت متأكدة خلاف ذلك، عندما اتصلتُ بباسكال في المساء، كان صوته ودوداً ومبهجاً، يحب أندريه، لكنه مقتنعٌ بما يفعله؛ لقد فشلت أندريه لأنها لعبت دور الخاسرة، بينما أنا أرغب في الفوز وسأحصل عليه، باسكال ينتظرني على رصيف حديقة لوكسمبورغ، كان دائماً سباقاً في الوصول إلى الاجتماعات، جلستُ، واتفقنا بصوت عالٍ أنّ اليوم كان جميلاً جداً حول الحوض، حيث أبحرت المراكب الشراعية القزمية، بدتْ أسرةُ الزهور وكأنها مطرزة بغرزة صغيرة؛ تصميمها المعقول، صراحة السماء، كلّ شيء أكد يقيني، كنت مصيبة في إحساسي، الحقيقة هي التي تتكلم من خلال فمي، سيضطرّ باسكال إلى الاستسلام، طرقت الموضوع فوراً:

- رأيتُ أندريه بعد ظهر أمس.

نظر إلي باسكال بنوع من التفهم:

- أنا أيضاً أردت أن أتحدث إليك عن أندريه، سيلفيا، عليك مساعدتي.

كانت تماماً نفس الكلمات التي قالتها لي السيدة غالار في الماضي.

- قلت: لا! لن أساعدك في إقناع أندريه بالمغادرة إلى إنجلترا، يجب ألا تغادرا هي لم تخبرك كم ترعبها هذه الفكرة، لكن أنا أعرف ذلك.

- قالت لي ذلك، ولهذا أطلب منك مساعدتي، يجب أن تفهم أنه لا يوجد شيء مأساوي في انفصال لمدة عامين.

- بالنسبة لها، إنه أمرٌ مأساوي، لستَ أنتَ وحدكَ من ستغادره؛ إنها ستغادر حياتها كلها، أضفت بلهجة نارية، لم أرها أبداً بهذه التعاسة، لا يمكنك أن تفعل ذلك بها!

- قال باسكال: أنتِ تعرفين أندريه، أنت تعلمين جيداً أنها تبدأ بتحميل الأشياء فوق طاقتها، وبعد ذلك تستعيد توازنها، ثم أردف: إذا غادرت أندريه برغبتها، متأكدة من حبي وتملؤها الثقة في المستقبل، فلن يكون الفراق رهيباً حينها!

- قلت: كيف تتوقع منها أن تكون واثقة منك وواثقة من كلّ شيء إذا سمحت لها بالرحيل!

نظرتُ إلى باسكال بفزع:

- في النهاية، إنّ الأمر يعتمد عليكَ في جعلها سعيدة تماماً، أو بائسة جداً، وأنت تعرفين مأساتها!

- آه! إنّ لديك فن تبسيط الأمور. قال باسكال وهو يلتقط طوقاً كانت فتاة صغيرة قد ألقته للتو بين ساقيه ويعيده إليها بحركة سريعة:

- السعادة والتعاسة هي قبل كلّ شيء مسألة استعدادٍ داخلي.

- حسب تصرفات أندريه، ستقضي أيامها في البكاء، قلت وأضفت مهتاجة: إنّ قلبها لا يفكر بعقلانية كما قلبك! عندما تحب الناس، فإنك تشعر بالحاجة إلى رؤيتهم، لماذا يجب أن نكون غير منطقيين بحجة أننا نحب؟

- أنا أكره الأفكار المسبقة، قال باسكال وهو يهز كتفيه: إنّ الوجود بالمعنى المادي للكلمة ليس بهذه الأهمية، أو أن هناك مبالغة في الأمر.

ربما كانت أندريه رومانسية، ربما هي مخطئة، لكن إن كنتَ تحبها فعليك محاولة فهمها، لن تغيّرها بالمنطق.

نظرتُ بقلق إلى بساط من زهور البنفسج والمريمية الفواحة، فجأة قلت لنفسي: لن أغيّر باسكال بالمنطق.

- سألتُهُ: لماذا تخشى التحدث إلى والدك؟

- قال باسكال: هذا ليس خوفاً.

- ما هو إذاً؟

- قال باسكال: لقد شرحت ذلك لأندريه، لم تفهم، يجب أن تعرفي والدي والعلاقة التي تربطني به، نظر إليّ بتوبيخ: سيلفيا، أنت تعلمين أنني أحب أندريه، أليس كذلك؟

- قلت بفراغ صبر: أعلم أنك تيأس منها لتجنيب والدك أدنى مشكلة، أخيراً! إنها تشك في أنك ستتزوج منها يوماً!

- سيجد أنه من السخف أن أخطب في سنٍّ مبكرة جداً؛ سيحكم على أندريه بشكل سيءٍ للغاية، وسيفقد كلّ احترامه بالنسبة لي، مرة أخرى نظر باسكال في عيني:

- صدقيني، أنا أحب أندريه، وحتى أرفض ما تطلبه مني فإنّ أسبابي يجب أن تكون جدية.

- قلت: أنا لا أراها كذلك.

بدا أنّ باسكال يبحث عن كلماته للتعبير عما يحسّ به، وقام بحركة دلّت على عجزه عن القيام بذلك:

- قال بصوت متهدج: أبي كبيرٌ في السن، إنه متعب، من المحزن أن يطعن المرء في السن!

- على الأقل حاول أن تشرح له الموقف! اجعله يشعر أنّ أندريه لن تتحمل هذا الفراق.

- سيخبرني أنّ الانسان يستطيع تحمل كلّ شيء، كما تعلمين، هو نفسه تحمل الكثير من المآسي، أنا متأكد من أنه سوف يعتقد هذا الانفصال مرغوباً به.

- قلت: لكن لماذا؟

شعرتُ في داخل باسكال بعناد بدأ يخيفني، ومع ذلك، هناك سماء واحدة فوق رؤوسنا جميعاً، حقيقة واحدة، برقت في رأسي فكرة ملهمة:

- هل تحدثت إلى أختك؟

- أختي؟ لا، لماذا؟

- تحدث معها، قد تجد هي طريقة لشرح الأمر إلى والدك، سكت باسكال للحظة.

- إنّ أختي ستتأثر أكثر منه إذا تمت خطبتي.

كانت إيما هي من قصدتها بحديثي، جبهتها الكبيرة، فستانها الأزرق الداكن ذو الياقة البيضاء، ونظرتها المسيطرة عندما كانت تتحدث إلى باسكال.

لم تكن إيما حليفة.

- آه! قلت، إنها إيمّا من تخاف منه.

- قال باسكال: لماذا ترفضين أن تفهمي، لا أريد أن أؤذي والديّ أو إيمّا بعد كلّ ما حدث لي، يبدو هذا طبيعياً بالنسبة لي، مع ذلك فإيما لن يعنيها أكثر أن تنفذ الأوامر؟ لكن لا، ثم، متردداً قليلاً:

- ليس من المبهج أن تكون عجوزاً؛ وليس من البهجة العيش مع رجل عجوز أيضاً، عندما لا أكون هناك، سيكون المنزل حزيناً على أختي.

نعم، كنت أتفهم وجهة نظر إيمّا أفضل بكثير من وجهة نظر السيد بلونديل، وتساءلت عما إذا كانت إيمّا هي في الحقيقة من تقف وراء إبقاء باسكال على حبّه سراً.

- قلت: إنهم سيضطرون إلى الاستسلام لرؤيتك تذهب يوماً ما.

- قال باسكال: أنا أطلب من أندريه الصبر لمدة عامين فقط، ثم سيجد والدي أنه من الطبيعي أن أفكر في الزواج؛ وستعتاد إيمّا على الفكرة قليلاً.

- حالياً، سيكون الأمر مفجعاً، بالنسبة لأندريه، سيكون هذا الرحيل مفجعاً إذا كان على شخص ما أن يعاني، فلماذا يجب أن تكون هي؟

- أنا وأندريه أمامنا حياة ويقين أننا سنكون سعداء لاحقاً، يمكننا أن نضحي بأنفسنا لبعض الوقت في سبيل من لا يملكون شيئاً، قال باسكال بقليلٍ من الانزعاج.

- قلت: إنها ستعاني أكثر منك، ونظرت إلى باسكال بعدائية:

- إنها شابة، نعم، هذا يعني أنّ لديها دماء في عروقها، إنها تريد أن نعيش... هزّ باسكال برأسه:

- قال: هذا أيضاً أحد الأسباب التي تجعلنا نفضل أن يذهب كلٌّ منا في طريقه لفترة.

بقيتُ للحظة مندهشة.

- قلت: لا أفهم.

- سيلفيا، في بعض النواحي، أنت تبدين أكبر من عمرك، نبرته التي كان يحدثني بها ذكرتني بالنبرة التي اعتاد الأب دومينيك أن يستخدمها عندما كان يحثني على الاعتراف بشيء، ومن ثم فأنتِ لست مؤمنة، هناك أمور تستعصي عليك.

- مثلاً؟

- إنّ الخطوبة ليست أمراً يسهل على المسيحيين العيش فيه، إنّ أندريه امرأة حقيقية، امرأةٌ من لحم ودم، حتى لو لم نستسلم للإغراءات، ستكون حاضرة في ذهننا باستمرار، هذا النوع من الهوس هو في حدّ ذاته خطيئة، شعرت بالاحمرار، لم أخطط لهكذا تبرير وكنت مترددة في التفكير به.

- بما أنّ أندريه مستعدة لتحمل هذه المخاطرة، فليس لك أن تقرر بدلاً عنها، قلت.

- بلى، يعود الأمر لي في الدفاع عنها في مواجهتها مع نفسها، إنّ أندريه كريمة لدرجة أنها مستعدة لتموت من أجل الحب، أندريه المسكينة! الكلّ يريد أن يصل إلى خَلاصه، وهي تريد أن تكون سعيدة جداً على هذه الأرض!

- قال باسكال: أندريه لديها إحساسٌ بالخطيئة أكثر مني، من أجل قصة طفولية بريئة، رأيتُها تقضم أصابعها ندماً، إذا أصبحت علاقتنا مضطربة إلى حدٍّ ما، فلن تسامح نفسها.

شعرتُ أني أخسر المباراة، ومنحني قلقي بعضاً من القوة:

- باسكال، استمع إليّ، قضيت شهراً مع أندريه، إنها منهكة القوى، جسدياً، لقد تعافت قليلاً، لكنها ستفقد شهيتها ونومها مرة أخرى،

وستمرض في النهاية، إنها مرهقة أخلاقياً، هل يمكنك أن تتخيل ما هي الحالة التي كانت عليها لتقطع قدمها بفأس؟

لخصت ما كانت عليه أندريه خلال خمس سنوات من دفعة واحدة، حزنها عند انفصالها عن برنار، وخيبة أملها في اكتشاف حقيقة العالم الذي نعيش فيه، والنضال الذي خاضته ضدّ والدتها من أجل أن تتصرف وفقاً لقلبها ووفقاً لضميرها، كلّ انتصاراتها تسممت بالندم وفي أقل شهواتها انتبهت في معصية، أثناء حديثي، لمحت ذلك الغور العميق المظلم في أعماق أندريه الذي لم تكشفه لي أبداً، والذي توقعت سبر بعض من أغواره على إثر بعض كلماتها، كنت خائفة وبدا لي أنّ باسكال كان خائفاً مثلي.

- قلت: في كلّ ليلة خلال هذه السنوات الخمس كانت تتمنى أن تموت، وفي ذلك اليوم بدت يائسة لدرجة أنها قالت لي: الله ضدي! هزّ باسكال رأسه، لم يتغير وجهه.

- أنا أعرف أندريه مثلك، بل أكثر منك، قال، لأني أستطيع متابعتها في لقطات من حياتها ممنوعة عليّ، لقد تمّ طلب الكثير منها، لكن ما لا تعلمينه هو أنّ الله يوزع نعمه بقدر ما يصب جام غضبه، إنّ أندريه لديها أفراح وأشياء تهدئ من روعها لا تشكين بها أبداً.

لقد هُزمت، غادرتُ باسكال فجأة وذهبتُ محنية الرأس تحت تلك السماء الكاذبة، برقتْ حججٌ أخرى في ذهني، لم تكن لتفيد في شيء، كان الأمر غريباً، لقد أجرينا مئات المناقشات، ودائماً ما كان أحدنا يقنع الآخر، اليوم، هناك شيء حقيقي للغاية على المحك، وتحطمت كل الأمور المنطقية ضدّ الأدلة العنيدة التي سكنت داخلنا.

كثيرا ما تساءلت في الأيام التالية عن الدوافع الحقيقية التي رضخ لها باسكال، هل والده أم إيمّا التي كانت تؤثر عليه؟ هل آمن بقصص التجربة والخطيئة هذه؟ أم أنّ ذلك كله كان مجرّد ذريعة؟ هل كان متردداً في الالتزام بحياة البالغين الآن؟ يتطلع دائماً إلى المستقبل بقلق، آه! كان يمكن للمشكلة ألاّ تكون موجودة أصلاً لو أنّ مدام غالار لم تفكر في هذه الخطوة؛ كان من الممكن أن يرى باسكال أندريه بهدوء خلال هذين العامين؛ كان سيقنع نفسه بجدية حبهما، وسيعتاد فكرة أن يصبح رجلاً، ومع ذلك أزعجني عناده.

شعرتُ بالغضب من مدام غالارد، ومن باسكال، حتى من نفسي لأنّ الكثير من الأشياء عن أندريه ظلت غامضة بالنسبة إلي من دون أن أستطيع أن أقدم لها مساعدة حقيقية، مرت ثلاثة أيام قبل أن تجد أندريه من جديد وقتاً لرؤيتي؛ رتبت لمقابلتي في صالون الشاي المسمى البرنتام،

من حولي، هناك نساءٌ يفوح العطر منهن يأكلن الكيك ويتحدثن عن تكلفة

الحياة، منذ يوم ولادتها، كان من المتوقع أن تصبح أندريه مثلهن، لم تكن

تشبههن، تساءلتُ ما هي الكلمات التي سأقولها لها، لم أجد من هذه

الكلمات ما يواسي نفسي.

اقتربتْ أندريه بخفة:

- لقد تأخرتِ!

- لا يهمّ، كانت تتأخر في كثير من الأحيان، ليس لأنها لا تلتزم

بأخلاقيات احترام المواعيد، لكن لأنها منقسمة على نفسها بين مخاوف

متعارضة من ارتكاب المشينات.

- أعتذر عن تحديد موعد معك هنا، لكن لدي القليل من الوقت،

وضعت حقيبتها ومجموعة من العينات على الطاولة:

- لقد عملت بالفعل في أربعة متاجر!

- قلت: يا له من عمل! أعرف الروتين، عندما كان أطفال عائلة

غالار الصغار إلى معطف أو فستان، كانت أندريه تتجول في المتاجر وفي

بعض المتاجر المتخصصة، وتحضرُ عينات إلى المنزل وينعقد مجلس الأسرة،

وتختار مدام غالار قماشاً، مع مراعاة الجودة والسعر، هذه المرة، كان الأمر

يتعلق بلوازم الزفاف، ولم يكن هناك شكّ في أنه لا يجب الاستخفاف باتخاذ القرار.

- قلت بنفاذ صبر: مع ذلك فوالديك، لا ينقصهما المال.

- قالت أندريه: لا، لكنهما يعتقدان أنّ المال لم يوجد ليتمّ تبذيره كيفما كان.

أعتقد أنّ تجنيب أندريه التعب والملل من هذه المشتريات المعقدة ليس تبذيراً، كانت هناك دوائر سوداء تحت عينيها، وانفصل مكياجها فجأة على بشرتها البيضاء، ومع ذلك، ولدهشتي، ابتسمتْ:

- أعتقد أنّ الفتاتان التوأم ستكونان ناعمتين في ذلك الحرير الأزرق.

أومأتُ برأسي بلا مبالاة:

- إنك تبدين متعبة.

- المتاجر الكبرى تصيبني دائماً بالصداع، سأتناول حبة اسبرين، طلبت كوباً من الماء وشاياً.

- يجب أن تري الطبيب، لديكِ صداع في كثير من الأحيان.

- أوه! إنها الشقيقة، لا بأس بذلك، تأتي وتذهب، لقد اعتدتُ على ذلك، قالت أندريه وهي تذيب قرصي اسبرين في كوب من الماء، شربتْ

وابتسمتْ مرة أخرى، قال لي باسكال عن محادثتك معه، لقد شعر بالأسف قليلاً لأن لديه انطباعاً أنك حكمت عليه بشكل سيء للغاية،

نظرت إلي بجدية:

- لا يجب عليك ذلك!

- لا أحكم عليه بسوء، قلت، لم يعد لديّ خيار، طالما أنّ أندريه مضطرة إلى المغادرة، فقد كان من الأفضل لها أن تثق بباسكال:

- صحيح أنني أبالغ دائماً في الأشياء، أعتقد أني لن أمتلك القوة، إننا نمتلك القوة دائماً، شبكت أصابعها وفكتها بعصبية لكن وجهها كان هادئاً.

- كلّ تعاستي تكمن في أنني غير مؤمنة كفاية، أضافت، يجب أن أؤمن بأمي، بباسكال، بالله، عندها سأشعر أنهم لا يكرهون بعضهم، وأن أحداً منهم لا يريد أن يؤذيني، بدت كأنها تتحدث إلى نفسها بالأحرى وليس لي، لم تكن هذه عادتها.

- قلت: نعم، أنت تعلمين أنّ باسكال يحبك وأنكما في النهاية سوف تتزوجان، لذا فإنّ هذين العامين ليسا مدة طويلة...

- من الأفضل أن أرحل، قالت، الحق معهم، وأنا أعلم ذلك جيداً، أعلم جيداً أن متعة الجسد خطيئة، إذاً يجب أن نهرب من ذلك، ثم أضافت، يجب أن نتحلى بالشجاعة لمواجهة الأمور، لم أجب، سألتُها:

- هل ستكونين حرة هناك؟ هل سيكون لديكِ وقت لنفسك؟

- قالت أندريه: سأتبع بعض الدروس وسيكون لديّ متسع من الوقت، تناولتْ رشفة من الشاي، توقفتْ يداها عن الرجفان.

- بهذا المعنى، ستكون الإقامة في إنكلترا فرصة لي؛ لو بقيت في باريس، لكنت عشت حياة مروعة، في كامبريدج، سوف أتنفس الصعداء.

- سيتوجب القيام بالنوم والأكل.

- لا تخافي؛ سأكون عقلانية، لكن أريد أن أعمل، قالت أندريه بصوت حيوي، سوف أقرأ الشعراء الإنجليز، يوجد منهم شعراء جميلون، ربما سأحاول ترجمة شيء ما، وقبل كلّ شيء أودّ أن أقوم بدراسة حول الرواية الإنجليزية، يبدو لي أنّ هناك الكثير مما يمكن قوله عن الرواية، أشياء لم نقلها من قبل..

رسمت ابتسامة وقالت:

- ما تزال أفكاري مشوشة بعض الشيء، لكن لديّ جملة من الأفكار هذه الأيام.

- أود أن تخبريني بها.

- أريد أن أتحدث معك عنها، أفرغت أندريه فنجان الشاي، في المرة القادمة، سأتأكد من أنه لدي الوقت، أعتذر عن إزعاجك من أجل خمس دقائق فقط؛ لكني أردت فقط أن أخبرك ألاّ تقلقي علي بعد الآن، لقد فهمت أنّ الأمور هي تماماً كما ينبغي أن تكون، غادرنا صالون الشاي، وتركتها أمام أحد محلات الحلوى، ابتسمت لي ابتسامة كبيرة مشجعة:

- سأتصل بك، إلى اللقاء!

******

بقية الأحداث، علمتها من باسكال، جعلتُهُ يسردُ المشهد كثيراً وبتفاصيل كثيرة لدرجة أنّ ذاكرتي أصبحت بالكاد تميزه عن ذكرياتي الشخصية، كان ذلك بعد يومين، في نهاية فترة ما بعد الظهر، كان السيد بلونديل يصحح واجبات الطلاب المدرسية في مكتبه؛ إيمّا تقشر الخضار، لم

يكن باسكال قد عاد بعد، رنّ جرس الباب، قامت إيمّا بمسح يديها وذهبت لتفتح الباب، وجدت نفسها أمام فتاة ذات شعر داكن، ترتدي بشكل لائق حلّة رمادية، لكن من دون قبعة، في ذلك الوقت كان هذا يبدو غير مألوف تماماً.

- قالت أندريه: أودّ التحدث إلى السيد بلونديل..

اعتقدت إيمّا أنها تلميذة قديمة من تلاميذ والدها، وجعلت أندريه تدخل غرفة المكتب، فوجئ السيد بلونديل بفتاة غريبة تقترب منه بيدٍ ممدودة:

- صباح الخير يا سيدي، أنا أندريه غالار.

- معذرةً، قال وهو يصافحها لا أتذكركِ... جلستْ ووضعتْ ساقاً فوق ساق:

- ألم يخبركَ باسكال عني؟

- قال بلونديل: آه! هل أنتِ صديقة باسكال؟

- لستُ صديقة، نظرتْ حولها: هو ليس موجوداً؟

- لا..

- أين هو؟ سألتْ بقلق، هل مات؟

تفحصها بلونديل باهتمام: كانت عظام وجنتيها ملتهبتين، ومن الواضح أنها مصابة بالحمى.

- قال: سيعود خلال لحظة.

- قالت أندريه: لا يهم، أنت من جئت لرؤيته..

انتابتها رجفة.

- قالت بحماس: هل تنظر إليّ لترى إن كانت هناك علامة الخطيئة على وجهي؟ أقسم أني لستُ ممّن يرتكب الخطيئة، لقد كافحتُ دائماً، دائماً.

- تمتم السيد بلونديل: إنّ لديكِ هيئة فتاة لطيفة للغاية، وبدأ يشعر بنفسه على جمر ساخن؛ علاوة على ذلك، كان أصمّ قليلاً.

- قالت: أنا لست قديسة، مرّرت يدها على جبهتها، أنا لست قديسة، لكنني لن أؤذي باسكال، أتوسل إليك، لا تجبرني على الذهاب!

- الذهاب؟ إلى أين؟

- أنت لا تعرف: سترسلني أمي إلى إنجلترا إذا أجبرتني على المغادرة!

- قال السيد بلونديل: أنا لا أجبركِ، إنه سوء فهم.

بدا أنّ الكلمة هدّأته:

- قال: إنه سوء تفاهم.

- أعرف كيف أديرُ منزلاً، قالت أندريه، لن ينقص باسكال أيّ شيء، وأنا لست متطلبة، إذا كان لديّ القليل من الوقت لعزف الكمان الخاص بي ولرؤية سيلفيا، فلن أطلب أيّ شيء آخر.

نظرتْ بقلق إلى السيد بلونديل، ألا تعتقد أنني عاقلة؟

- عقلانية جداً.

- لماذا إذاً أنت ضدي؟

- صديقتي الصغيرة، أكرر لكِ أنّ هناك سوء فهم:

- قال السيد بلونديل: أنا لستُ ضدكِ، لم يفهم شيئاً في هذه القصة، لكنّ هذه الفتاة الصغيرة ذات الخدين المحمومين كانت تثير فيه الشفقة، لقد أراد طمأنتها وتحدث بقوة لدرجة أنّ وجه أندريه لم يعدْ متوتراً.

- حقاً!

- أقسم.

- إذاً أنتَ لن تمنعنا من إنجاب الأطفال؟

- بالطبع لا.

- إنّ سبعة أطفال يُعدُّ عدداً أكثر من اللازم، هذا العدد هو هدرٌ لكلّ شيء، لكن ثلاثة أو أربعة فهذا جيد.

- قال السيد بلونديل: هلاّ أخبرتني قصتك.

- قالت أندريه: نعم، وفكّرتْ للحظة:

- كما ترى، اعتقدتُ أنه يجب أن أمتلك القوة للرحيل، اعتقدتُ أني سأحصل عليه، وفي هذا الصباح، عندما استيقظت، فهمتُ أني لا أستطيع، لذلك جئتُ لأطلب منك أن ترحمني.

- قال السيد بلونديل: أنا لستُ عدواً، احكي لي.

قصّت عليه دون أن يكون في سردها الكثير من التناقض.

سمع باسكال صوتها عبر الباب فصُدم.

- أندريه! قال بلهجة عاتبة وهو يدخل الغرفة، لكن والده أعطاه إشارة.

- إنّ الآنسة غالار اضطرت للتحدث معي، وأنا سعيد جداً بلقائها، هي فقط متعبة، ولديها حمى، ستعيدها إلى والدتها، اقترب باسكال من أندريه وأخذ بيدها:

- قال: نعم، لديكِ حمى.

- لا يهم؛ أنا سعيدة جداً، والدكَ لا يكرهني!

لمس باسكال شعر أندريه:

- انتظروني، سأتصل بسيارة أجرة.

تبعه والده إلى غرفة الانتظار وهو يروي له زيارة أندريه:

- سأله بعتب: لماذا لم تخبرني؟

- قال باسكال: بالتأكيد كنت مخطئاً، فجأة شعر بشيء غير معروف، غير عادل، لا يطاق في حلقه، كانت أندريه قد أغلقت عينيها، انتظروا السيارة في صمت، أخذ ذراعها لينزلوا الدرج، في سيارة الأجرة، وضعت رأسها على كتفه.

- باسكال، لماذا لم تقبّلني أبداً؟ قبّلها.

شرح باسكال موقفه باقتضاب للسيدة غالار، جلسوا معاً عند سرير أندريه، قالت مدام غالار: ((لن تغادري، لقد تمّ ترتيبُ كلّ شيء))، ابتسمت أندريه:

- علينا أن نطلب الشمبانيا، ثم بدأتْ في الهذيان، وصف الطبيب المهدئات، تحدث عن التهاب السحايا والتهاب الدماغ لكنه لم يحسم التشخيص، أخبرني أحد الروحانيين اللذين تتعاطى معهم مدام غالار أنّ أندريه كان تهذي طوال الليل، أعلن الأطباء أنه يجب عزلها وتمّ نقلها إلى

مشفى في سان جيرمان أونلي حيث كانوا يحاولون بكلّ الوسائل إنزال الحمى لديها، لازمتها إحدى الممرضات لثلاثة أيام:

- أريد باسكال، سيلفيا، كماني وشمبانيا، أخذتْ تكرر من خلال هذيانها، لم تنزل الحمى، سهرت عليها مدام غالار في الليلة الرابعة؛ في الصباح تعرفت إليها أندريه.

- سألتْ: هل سأموت؟ يجب ألاّ أموت قبل الزفاف، سيبدو الصغار لطيفين للغاية في هذا الحرير الأزرق!

كانت ضعيفة للغاية لدرجة أنها كانت بالكاد تستطيع أن تتحدث، كررت عدة مرات: ((سأفسد الحفلة!)) أنا أفسدُ كلّ شيء! أنا لم أتسبب إلا بالمشاكل، ثم في وقت لاحق أمسكتْ بيدي والدتها،

- لا تحزني، في كل العائلات هناك نفايات، لقد كنت أنا هذه النفايات، ربما قالت أشياء أخرى، لكن السيدة غالار لم تكررها لباسكال، عندما اتصلتُ بالمشفى حوالي الساعة العاشرة صباحاً، قيل لي: ((انتهى الأمر))، لم يؤكد الأطباء سبب الوفاة، رأيتُ أندريه مرة أخرى في كنيسة المشفى، مستلقية في منتصف سرير من الشموع والزهور، كانت ترتدي أحد قمصان نومها الطويلة الخشنة المصنوعة من القماش، وقد نما شعرها وتهدّل في خيوط متخشبة على وجه أصفر ونحيل جداً لدرجة أني بالكاد ميزت

ملامحه، بدت في نهاية يديها المتشابكتين على الصليب مخالب طويلة باهتة متفتتة كأنها لمومياء قديمة جداً، ودُفنت في مقبرة بيتري الصغيرة، بين رماد من سبقها إلى هناك من عائلتها، كانت مدام غالار تبكي، ((لقد نفذنا فقط مشيئة الله))، كان القبر مغطّى بالورود البيضاء.

لقد فهمتُ بشكل غامض أنّ أندريه ماتت مختنقة بهذا البياض الذي كانت عليه، قبل أن أستقل قطاري، وضعتُ على الجسد الطاهر ثلاث وردات حمراء.

الفهرس

Simone de Beauvoir

فتاتان لا تفترقان

الرواية المفقودة لمؤلفة كتاب الجنس الآخر والتي كتبت في عام ١٩٥٤، بعد خمس سنوات من الجنس الآخر، لم تُنشر الرواية في حياة سيمون دي بوفوار بعد طلب شخصي من سارتر حيث تحتوي الكثير من التلميحات المثلية.

تتضمن الرواية مقدمة لابنتها بالتبني ديبورا ليفي، التي اكتشفت المخطوطة المخبأة في درج.

القصة القهرية لصديقتين تكبران وتنهاران تقدم صورًا للصداقة الواقعية التي ألهمت المؤلفة وعذبتها.

عندما انضمت أندريه إلى مدرستها، فتنت سيلفي (سيمون دي بوفوار) بها على الفور. أندريه صغيرة بالنسبة لسنها، لكنها تمشي بثقة شخص بالغ. تحت معطفها الأحمر، تخفي ندوب حروق رهيبة. وعندما تتخيل أشياء جميلة، تصاب بالقشعريرة... تؤمن سيلفي سراً أن أندريه معجزة ستكتب الكتب عنها.

الفتيات يقتربن. يتحدثن لساعات عن المساواة والعدالة والحرب والدين. يفقدن احترام معلميهم؛ يبنينَ عالما خاصا بهم. لكنهم لا يستطيعون البقاء هكذا إلى الأبد.



ISBN 979-10-319-0274-6
9 791031 902746
SCAN ME
L'Herne
TANIT